خطوات

في الطريق إلى الله

بقلم

قداسة البابا شنوده الثالث

الطبعة الأولى

٢٠٢١م

الكتاب: خطوات في الطريق إلى الله.

المؤلف: مثلث الرحمات قداسة البابا شنوده الثالث.

دار نشر كنيسة السيدة العذراء بالزيتون/ رقم ١٠٢١

الطبعة: الأولى، ٢٠٢١م

رقم الإيداع بدار الكتب: ٢٠٢١/٢٣٦٤٩م

الترقيم الدولي: 978-977-86014-3-5

قداسة البابا تواضروس الثاني

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية الـ١١٨

قداسة البابا شنوده الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية الـ١١٧

طُرس البركة لقداسة البابا تواضروس الثاني

وإن مات فهو يتكلم بعد..

غزارة المعرفة وعمقها في حياة المتنيح قداسة البابا شنوده الثالث جعلته يترك لنا تُراثًا روحيًا وأدبيًا وكنسيًا ربما لم تشهده أجيالًا كثيرة قبلًا. وفي نفس الوقت هذا التُراث لم نحصره تمامًا حتى الآن.

ورغم أنه نُشر أكثر من ١٥٠ كتابًا بأحجام متنوعة وفي موضوعات عديدة تغطي مساحات كبيرة من المعارف المسيحية الروحية والكنسية والآبائية، والتي تُرجمت معظمها إلى العديد من اللغات، حتى صار اسمه معروفًا عالميًا أنه "مُعلّم الأجيال"؛ **إلا أنه ما زال يوجد الكثير مما لم ينشر بعد. وننشر لكم بعضًا من ذلك التُراث الخالد والذي لم يُنشر من قبل.**

ونقدم لكم كتاب:

(خطوات في الطريق إلى الله)

وسوف تجد عزيزي القارئ متعة خاصة وأنت تستمع لصوت قداسته عبر الصفحات وبعد رحيله.. يُعلمنا ويروينا من فيض معرفته وروحياته وخبراته العميقة.

تقديري ومحبتي لكل من ساهم في إخراج هذه الكتب إلى النور خاصة "مركز مُعَلِّم الأجيال لحفظِ ونشرِ تُراث البابا شنوده الثالث" في كنيسة السيّدة العذراء مريم بالزيتون بالقاهرة.

نفَّعنا الله ببركة صلواته لأجلنا كنيسةً وشعبًا وضعفي. ونعمته تشملنا جميعًا..

البابا تواضروس الثاني

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية الـ١١٨

هذا الكتاب

هو عبارة عن سلسلة مقالات نشرها قداسة البابا شنوده الثالث في مجلة الكرازة خلال عامي ١٩٧٧ و١٩٧٨م، تحت عنوان "**خطوات في الطريق إلى الله**".

إن هذا الكتاب بمثابة مُرشد في جهادنا الروحي، حيث يقدم عدة فضائل يجب أن تتوافر في الإنسان الروحي، وذلك من خلال مجموعة من الخطوات تساعدنا على السير في الطريق إلى الله..

وقد طرح قداسة البابا شنوده الثالث مجموعة من التساؤلات التي يجب أن يفكر فيها كل إنسان روحي ليختبر حقيقة علاقته مع الله.. فيقول: "إن هناك عبارات معينة قالها مختبرو الرَّب، هل عرفت مدى عمقها في حياتك؟ وهل تستطيع أن تقولها معهم؟ مثل...

† هل حقًا ذقت الرب؟ وهل شعرت كم هو حلو في فمك، وكم عِشرته جميلة، وكم هي ألذ من كل شيء؟

† هل عرفت معنى عبارة "وَأُوجَدَ فِيهِ" (في٣: ٩)؛ الذي به "نَحْيَا وَنَتَحَرَّكُ وَنُوجَدُ" (أع١٧: ٢٨)؛ وهل اختبرت عبارة: "فَأَحْيَا لاَ أَنَا، بَلِ الْمَسِيحُ يَحْيَا

فِيَّ"؟ (غلا٢: ٢٠) هل أنت فعلًا سائر في نفس الطريق الذي سار فيه هؤلاء الآباء؟

✝ إن **من علامات حياتك مع الله، أن تكتفي به...** فهل أنت كذلك. هل الله قد أشبع حياتك تمامًا، ولم تعد محتاجًا إلى شيء آخر إلى جواره؟ هل أصبح الله بالنسبة إليك هو الكل في الكل. أم أن قلبك ما زال ينبض بأمور أخرى في العالم، يحن إليها ويشتاق، قليلة كانت أم كثيرة؟".

وموضوعات وتساؤلات أخرى طرحها قداسته على صفحات هذا الكتاب، ولك أيها القارئ العزيز أن تتجول بين الصفحات، تنهل وتستقي من هذا النبع الفيّاض لقداسته، ليكون لك مُعلّمًا ومرشدًا في الطريق إلى الله.

بركة والدة الإله العذراء القديسة مريم وقداسة البابا شنوده الثالث، وصلوات قداسة البابا المعظم الأنبا تواضروس الثاني تكون معنا، وترشدنا، وتنير لنا الطريق، وتساعدنا لاستكمال رسالتنا في ضوء محبة الله وتنفيذ وصاياه.

القمص بطرس بطرس جيد

مركز مُعَلِّم الأجيال

لحفظ ونشر تراث البابا شنوده الثالث

قداسة البابا شنوده الثالث في سطور

١- وُلِدَ في ٣ أغسطس ١٩٢٣م، باسم نظير جيد روفائيل. في قرية سَلاَّم بأسيوط.

٢- حصل على ليسانس الآداب – قسم التاريخ – من كلية الآداب جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة حاليًا).

٣- التحق بالقوات المسلحة – مدرسة المُشاة – وكان أول الخريجين من الضباط الاحتياط سنة ١٩٤٧م.

٤- تخرج من الكلية الإكليريكية "القسم المسائي" سنة ١٩٤٩م، وكان الأول على الخريجين – فعُيِّنِ مُدرّسًا فيها.

٥- عمِلَ مُدَرِسًا للغة الإنجليزية والعربية، في إحدى المدارس الأجنبية.

٦- أتقَنَ الشعر منذ ١٩٣٩م، وكتب كثيرًا من القصائد الشعرية.

٧- في سنة ١٩٤٩م: تَكَرَّسَ للخدمة في الكلية الإكليريكية وبيت مدارس الأحد في روض الفرج بشبرا، وتولى رئاسة تحرير مجلة مدارس الأحد.

٨- صار راهبًا في دير العذراء الشهير بالسريان في ١٨ يوليو ١٩٥٤م.

٩- تمت سيامته بيد البابا كيرلس السادس، أول أسقف للتعليم والكلية الإكليريكية والمعاهد الدينية، باسم الأنبا شنوده في ٣٠ سبتمبر ١٩٦٢م.

١٠- بدأ الاجتماعات الروحية التعليمية منذ سنة ١٩٦٢م، واستمر فيها حتى نياحته سنة ٢٠١٢م.

١١- أصدر مجلة الكرازة في يناير ١٩٦٥م، واستمر في تحريرها حتى

نياحته سنة ٢٠١٢م (واستمرّ قداسة البابا المُعَظَّمْ تواضروس الثاني في إصدارها).

١٢- اختارته السماء بالقرعة الهيكلية وتمَّ تجليسه البابا الـ١١٧ للكنيسة القبطية الأرثوذكسية يوم ١٤ نوفمبر ١٩٧١م.

١٣- نَمَتْ الكنيسة القبطية في عهده، داخل مصر وخارجها؛ في كل قارات العالم: إفريقيا وآسيا وأوروبا وأستراليا والأمريكتين: الشمالية والجنوبية.

١٤- حصل على تسع شهادات دكتوراه فخرية من كبرى جامعات أمريكا وأوروبا.

١٥- امتدت الكلية الإكليريكية في عهده، وأصبح لها ١٦ فرعًا في مصر وخارجها.

١٦- كتب أكثر من ١٥٠ كتابًا في كثير من المجالات الكتابية والروحية، واللاهوتية والعقائدية وفي الخدمة والرعاية والتربية.

١٧- قامَ بسيامة بطريركين لكنيسة إريتريا و٥ مطارنة و١١٢ أسقفًا وأكثر من ٢٠٠٠ كاهن و١٠٠٠ راهب.

١٨- قامَ برحلات رعوية ورسمية لكثير من بلدان العالم، وصلت إلى أكثر من ٨٠ رحلة.

١٩- رقد في الرب في ١٧ مارس سنة ٢٠١٢م، وكانت جنازة قداسته مهيبة وعظيمة، حضرها أكثر من اثنين ونصف مليون شخص، بشهادة الأنبا باخوميوس، مطران البحيرة والقائم مقام البطريرك. نيح الله نفسه في فردوس النعيم، ونَفَعْنا بصلواته.

خطوات في الطريق الروحي*

نحدثكم عن خطوات في الطريق إلى الله: ما هي طبيعة العلاقة بيننا وبين الله: كيف تبدأ، وكيف تتطور، وإلى أين تصل؟

تبدأ الحياة مع الله، بالالتقاء به. يقابلك الله في طريق الحياة، يقدم لك ذاته بطريقة ما، فتتكون صلة...

وتكون الخطوة الأولى هي التعرف على الله، والتعرف على الله غير معرفة الله، التي تبدأ ولا تنتهي...

وإذ تتعرف على الله، وعلى طرقه، تشـــعر كم أنت بعيد عنه، وكم أنت تعاديه، فتبدأ تدخلك مخافة الله.

وكما قال الكتاب: "بَدْءُ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ الرَّبِّ" (أم٩: ١٠).

مخافة الله تدعوك إلى مصـــالحته، فتقودك إلى التوبة، وإلى العمل بوصاياه. وكلما تسلك في طريق الرَّب وفي طاعته، تشعر بلذة هذه الحياة الجديدة، وتحبها.

* مقال لقداسة البابا شنوده نُشر في مجلة الكرازة، بتاريخ ٢١ يوليو١٩٧٨م

وهكذا لا تستمر في المخافة، وإنما تقودك إلى المحبة.

وكلما تتعمق في محبة الله، يزول منك الخوف شـــيئًا فشـــيئًا. وكما قال القديس يوحنا الرســـول: "لاَ خَوْفَ فِي الْمَحَبَّةِ، بَلِ الْمَحَبَّةُ الْكَامِلَةُ تَطْرَحُ الْخَوْفَ إِلَى خَارِجٍ" (١يو٤: ١٨).

وفي حياة الحب تتعرف على الله بالأكثر. كلما تعرفه تحبه، وكلما تحبه تزداد معرفتك له ويكشف لك ذاته.

في الحقيقة نحن لا نعرف الله كما ينبغي. وكما قال بولس الرسـول: "الآنَ أَعْرِفُ بَعْضَ الْمَعْرِفَةِ، لكِنْ حِينَئِذٍ سَـأَعْرِفُ كَمَا عُرِفْتُ... لكِنْ حِينَئِذٍ وَجْهًا لِوَجْـهٍ" (١كو١٣: ١٢). وأمام عبارة (وجهًا لوجه) يقف الشـــخص منا منذهلًا... تُرى ماذا تعني هذه العبارة؟

المعرفة العقلية والعشرة مع الله

هناك أشخاص يعرفون الله مجرد معرفة عقلية.. معرفة من الكتب، أو من الاستماع للوعظ والتعليم، أو من علم اللاهوت أو من قانون الإيمان...

ولكن المعرفة العقلية وحدها لا تكفي، ما لم تسـندها العشـرة، وبالعشـرة تعرف الله معرفة اختبارية، أكثر يقينًا وبطريقة عملية.

إن الشياطين يعرفون الله معرفة عقلية، غير كاملة، وليست معرفة الحب والعشرة. لذلك يقول عنهم معلمنا يعقوب الرسول: "الشَّيَاطِينُ يُؤْمِنُونَ وَيَقْشَعِرُّونَ.." (يع٢: ١٩).

والمعرفة العقلية معرفة سطحية، لم تدخل إلى العمق.

قد تعرف بها بعض صفات الله. ولكنك تقف عند العناوين، ولا تعلم تمامًا ما بداخلها من أمور تذهل العقل، وتملأ القلب بمشاعر الحب والتوقير والاشتياق...

مَن مِن الناس استطاع حقًا أن يعرف الله؟!

لذلك فإن ربنا يسوع المسيح يقول للآب: "أَيُّهَا الآبُ.. إِنَّ الْعَالَمَ لَمْ يَعْرِفْكَ، أَمَّا أَنَا فَعَرَفْتُكَ..." (يو١٧: ٢٥)، ويقول الإنجيل أيضًا: "وَلَيْسَ أَحَدٌ يَعْرِفُ الابْنَ إِلاَّ الآبُ، وَلاَ أَحَدٌ يَعْرِفُ الآبَ إِلاَّ الابْنُ وَمَنْ أَرَادَ الابْنُ أَنْ يُعْلِنَ لَهُ" (مت١١: ٢٧).

ليتنا نصلي أن يكشف الله لنا ذاته، لكي نعرفه.. فمعرفة الله أمر عميق جدًا، اشتهاه الرسل والقديسون، ومن أجل معرفة الله، ضحوا بكل شيء لكي يعرفوه.

استمعوا إلى بولس الرسول وهو يقول: "لكِنْ مَا كَانَ لِي رِبْحًا، فَهذَا قَدْ

حَسِبْتُهُ مِنْ أَجْلِ الْمَسِيحِ خَسَارَةً، بَلْ إِنِّي أَحْسِبُ كُلَّ شَيْءٍ أَيْضًا خَسَارَةً مِنْ أَجْلِ فَضْلِ مَعْرِفَةِ الْمَسِيحِ". ومن أجل هذه المعرفة خسر بولس الرسول كل شيء وهو يحسبه نفاية، وفي ذلك يقول: "لأَعْرِفَهُ، وَقُوَّةَ قِيَامَتِهِ، وَشَرِكَةَ آلاَمِهِ" (في٣: ٧-١٠).

أمام هذا اللون من المعرفة، نسأل أنفسنا: أحقًا نحن نعرف الله؟ أو كما يقول الكتاب: "جَرِّبُوا أَنْفُسَكُمْ، هَلْ أَنْتُمْ فِي الإِيمَانِ؟" (٢كو١٣: ٥).

هل المسيح بالنسبة إلينا هو "الَّذِي رَأَيْنَاهُ بِعُيُونِنَا، الَّذِي شَاهَدْنَاهُ، وَلَمَسَتْهُ أَيْدِينَا" (١يو١:١)؟ أم هو الذي سمعنا عنه من آخرين؟

هذه المعرفة تجعلنا نسأل: هل لنا شركة معه؟

كما ينصحنا القديس يوحنا الرسول بقوله: "لِكَيْ يَكُونَ لَكُمْ أَيْضًا شَرِكَةٌ مَعَنَا. وَأَمَّا شَرِكَتُنَا نَحْنُ فَهِيَ مَعَ الآبِ وَمَعَ ابْنِهِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ" (١يو١: ٣).

✞ ولكن كيف نعرفه؟ هل يستطيع الإنسان المحدود أن يعرف الله غير المحدود؟ هل يتسع عقله لذلك وقلبه؟

في الواقع، كلما نحيا مع الله، نعرف عنه شيئًا. وكلما تتعمق حياتنا معه، نعرف أكثر.. ثم يكشف لنا الله أشياء عن ذاته، فيملكنا الدهش والعجب،

ونقف مبهورين، وقد عقد الصمت ألسنتنا، لا نستطيع أن نعبر عما عرفناه عن الله، لأنها (أمور لا يُنطق بها) كما قال الرسول.

إن معرفة الله تقود حقًا إلى الدَهش... وقد يكشف لنا الله مزيدًا من المعرفة، فلا نحتمل، ونصرخ قائلين: "كفانا كفانا" إن بشريتنا وهي في الجسد لا تحتمل كل هذا...

هذا الذي يكشفه لنا الله عن ذاته، هو ما لم تره عين، ولم تسمع به أذن، ولم يخطر على قلب بشر.

إنه النعيم الأكبر في الملكوت، أن نعاشر الله، ونعرفه، وبغير ذلك لا يكون الملكوت ملكوتًا، ولا يكون النعيم نعيمًا... إننا سننعم حقًا بالله وفضل معرفته.

وحتى في الملكوت، سنعرف الله بالتدريج، على قدر احتمالنا.

سيكشف لنا الله كل يوم شيئًا من ذاته يملؤنا سعادة وبهجة. ولكن متى نعرفه "وجهًا لوجه"؟ متى نعرف الله كمال المعرفة؟ يقول السيد المسيح: "وَهذِهِ هِيَ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ: أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الإِلهَ الْحَقِيقِيَّ وَحْدَكَ وَيَسُوعَ الْمَسِيحَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ" (يو١٧: ٣).

إذًا معرفة الله ليست الشيء الهين. إنها تبدأ ههنا على الأرض، ولكنها

لا تكمل إلا في الأبدية...

والذين لم يعرفوا الله على الأرض، لن يعرفوه في السـماء، ولن يعرفهم. أخشـى أن يقول الله لهؤلاء في اليوم الأخير: "فَحِينَئِذٍ أُصَـرِّحُ لَهُمْ: إِنِّي لَمْ أَعْرِفْكُمْ قَطُّ!" (مت٧: ٢٣).

هنـا إذًا مـذاقـة الملكوت "ذُوقُوا وَانْظُرُوا مَـا أَطْيَـبَ الرَّبَّ" (مز٣٤: ٨). **والذي لم يذق الله ههنا، لن ينعم به في الأبدية.**

إذًا في علاقتك مع الرَّب، يمكنك أن تسـأل نفسـك: هل حقًا ذقت الرب؟ وهل شـعرت كم هو حلو في فمك، وكم عِشـرته جميلة، وكم هي ألذ من كل شيء...

إذًا لا بد أن تدخل في عشرة الله، لكي تعرفه...

لا بد أن تحيا معه، وتختبره. ولا بد أن يكون له وجود فعلي في حياتك. يسـكن في داخلك، وتحس سـكناه فيك، تحس نعمته وعمله وحبه. ينطق على فمك، ويقود حياتك. ويكون قلبك فعلًا هيكلًا للروح القدس. وتدرك تمامًا معنى قوله: "وَهَا أَنَا مَعَكُمْ كُلَّ الأَيَّامِ وإِلَى انْقِضَـاءِ الدَّهْرِ" (مت٢٨: ٢٠)...

هل جربت عبارة "اثبتوا فيَّ، وأنا فيكم" (يو١٥: ٣)؟

"الَّذِي يَثْبُتُ فِيَّ وَأَنَا فِيهِ هذَا يَأْتِي بِثَمَرٍ كَثِيرٍ" (يو١٥: ٥). هل اختبرت هذا الثبوت المتبادل، في حياتك الروحية؟ وهل شعرت كم هو لازم لحياتك، لتأتي بثمر؟ وهل كل ثمارك الروحية ناتجة عن هذا الثبوت وحده؟

هل في ثباتك في الله، انفصلت عن كل شيء آخر؟

لأن الكتاب يقول: "وَأَيَّةُ شَرِكَةٍ لِلنُّورِ مَعَ الظُّلْمَةِ؟ وَأَيُّ اتِّفَاق لِلْمَسِيحِ مَعَ بَلِيعَالَ؟" (٢كو٦: ١٤). هل شعرت أنك غصن في الكرمة، تسري فيك عصارة الكرمة وحياتها، فتعطي ثمارًا من نفس النوع؟ هل في ثباتك في الله، صرت ثابتًا في البر وفي الحق وفي القداسة؟

هناك عبارات معينة قالها مختبرو الرَّب، هل عرفت مدى عمقها في حياتك؟ وهل تستطيع أن تقولها معهم؟..

هل عرفت معنى عبارة "وَأُوجَدَ فِيهِ" (في٣: ٩)، الذي به "نَحْيَا وَنَتَحَرَّكُ وَنُوجَدُ" (أع١٧: ٢٨)، وهل اختبرت عبارة: "فَأَحْيَا لاَ أَنَا، بَلِ الْمَسِيحُ يَحْيَا فِيَّ"؟ (غلا٢: ٢٠) هل أنت فعلًا سائر في نفس الطريق الذي سار فيه هؤلاء الآباء...

إن من علامات حياتك مع الله، أن تكتفي به...

داود الذي اختبر الرب قال له: "وَمَعَكَ لاَ أُرِيدُ شَيْئًا فِي الأَرْضِ" (مز٧٣: ٢٥)، وقال أيضًا: "الرَّبُّ رَاعِيَّ فَلاَ يُعْوِزُنِي شَيْءٌ" (مز٢٣: ١).

فهل أنت كذلك. هل الله قد أشبع حياتك تمامًا، ولم تعد محتاجًا إلى شيء آخر إلى جواره؟ هل أصبح الله بالنسبة إليك هو الكل في الكل. أم أن قلبك ما زال ينبض بأمور أخرى في العالم، يحن إليها ويشتاق، قليلة كانت أم كثيرة؟

✞ تأمل حياة آبائنا السواح والمتوحدين كمثال في الاكتفاء بالله...

كيف كان الواحد منهم يقضي ستين سنة أو ثمانين، لا يرى أثناءها وجه إنسان، ومع ذلك لا يشعر أنه يعوزه شيء. ذلك لأن الله استطاع أن يملأ حياته كلها، يملأ قلبه وفكره، فلا تنقصه رغبة أخرى تشبعه!

✞ لكي تصل إلى الاكتفاء بالله

إن كنت لم تصل إلى هذا المستوى، فابدأ ولو بالقليل...

تدرب على الكلام مع الله. ولست أقصد مجرد الصلاة، إنما أقصد لذة التحدث إلى الله، الصلاة الممزوجة بالفرح؛ فرح التحدث مع الله، بحيث لا تود أن تنتهي. درب نفسك أيضًا على التفكير في الله، وفي صفاته الجميلة، وفي حسن معاملته، وفي مجده وعظمته، وفي حبه ولطفه، وفي

سمائه وملكوته... وليكن هذا الفكر مشبعًا لقلبك.

وبالإضـــافة إلى لذة الحديث مع الله، ومتعة التفكير فيه، درب نفســـك أيضًا على أن تشرك الله في حياتك...

اعتمد عليه تمامًا. ليكن هو ولي أمرك، تعرض عليه كل أمورك، لكي يتولاها ويدبرها. إنك تعتمد على كثيرين، وعلى فكرك في تدبير حياتك وحل مشـــاكلك. فهل فكرت أن تعتمد على الرب تمامًا، وأن تلقي كل أحمالك عليه؟ وهل تدربت على الثقة به؟ وهل تعودت أن تنتظر الرب، من محرس الصبح إلى الليل، بكل إيمان؟

هل دخلتَ في حياة الشركة مع الرب؟

وأصبحت بهذا لا تعمل شيئًا بمفردك، مهما كان بسيطًا، وإنما أنت عامل مع الله، وأنت تشـعر بيد الله في حياتك، وتشـعر أنك بدونه لم تفعل شـيئًا في حياتك "كُلُّ شَيْءٍ بِهِ كَانَ، وَبِغَيْرِهِ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ" (يو١: ٣).

لا تكن سلبيًا في علاقتك بالله، خذ منه موقفًا...

وهذا الموقف هو أن تصـــير له، وأن تســـلّمه حياتك، وأن تحيا بأمانة كاملة في علاقتك به، تتقدم كل يوم خطوة جديدة تعمق صلتك به، مغنّيًا مع عذراء النشيد "حَبِيبِي لِي وَأَنَا لَهُ" (نش٢: ١٦).

خطوات إلى الله*

إنه طريقٌ طويلٌ نَسيرُ فيه نحو الله: من حياة التوبةِ إلى النقاوة والحب إلى القداسة، إلى النمو في هذه القداسة.. إلى الكمال. كل هذه الخطوات إلى الله تحتاج إلى جدية، وتحتاج منا أن نبدأ، ولو بالخطوة الأولى..

خطوات إلى الله

كنتُ كلمتكم عن الآية التي تقول: "**وَمَعَكَ لاَ أُرِيدُ شَيْئًا فِي الأَرْضِ**" (مز٧٣: ٢٥). ولكن ما أسهل في موقف الإنسان من الخطية، أنه لا يريدها، وفي نفس الوقت لا يستطيع أن يتركها..!

وقد شرح بولس الرسول هذا الأمر في رسالته إلى رومية فقال: "إِذْ لَسْتُ أَفْعَلُ مَا أُرِيدُهُ، بَلْ مَا أُبْغِضُهُ فَإِيَّاهُ أَفْعَلُ. فَإِنْ كُنْتُ أَفْعَلُ مَا لَسْتُ أُرِيدُهُ، فَإِنِّي.. لَسْتُ بَعْدُ أَفْعَلُ ذلِكَ أَنَا، بَلِ الْخَطِيَّةُ السَّاكِنَةُ فِيَّ. فَإِنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ سَاكِنٌ فِيَّ، أَيْ فِي جَسَدِي، شَيْءٌ صَالِحٌ. لأَنَّ الإِرَادَةَ حَاضِرَةٌ عِنْدِي، وَأَمَّا أَنْ أَفْعَلَ الْحُسْنَى فَلَسْتُ أَجِدُ. **لأَنِّي لَسْتُ أَفْعَلُ الصَّالِحَ الَّذِي أُرِيدُهُ،**

* مقال لقداسة البابا شنوده نُشر في مجلة الكرازة، بتاريخ ٢٨ أكتوبر ١٩٧٧م

بَلِ الشَّرَّ الَّذِي لَسْتُ أُرِيدُهُ فَإِيَّاهُ أَفْعَلُ" (رو٧: ١٥- ١٩).

إذًا لا تكفي مجرد الإرادة. لأنه من الجائز أن يريد الإنسان الخير، ولكنه لا يقوى على فعله، ويغلبه الشر.

الصراع

ومن هنا كانت أول خطوة في طريق الله هي الصراع...

الصراع من أجل هذا الخير الذي تريده إذ أنه لكي تُعبّر عن إرادتك لا بد أن تفعل شيئًا. لا بد أن تقاوم وأن تصارع.

صراع له طابع ثلاثي: تصارع ذاتك، تصارع الخطية، تصارع الله.

لا بد أن تصارع ذاتك، تنتصر عليها، تخضعها. تحولها إلى طريق الله. تتصارع مع رغباتك ونزعاتك الداخلية. لا تخضع لنفسك، وإنما تقف ضدها بكل قوة. وكما يقول الرب: "إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَيَّ وَلاَ يُبْغِضُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَامْرَأَتَهُ وَأَوْلاَدَهُ وَإِخْوَتَهُ وَأَخَوَاتِهِ، حَتَّى نَفْسَهُ أَيْضًا، فَلاَ يَقْدِرُ أَنْ يَكُونَ لِي تِلْمِيذًا" (لو١٤: ٢٦).

غالبية الذين يخطئون، يجاملون أنفسهم ويدللونها، فيعطونها ما تريد..
إنهم ليسوا منتصرين على النفس من الداخل..

ينبغي أيضًا أن تصارع الخطية وتصارع الشيطان. وماذا أيضًا؟

تصـــارع مع الله، لكي تأخذ منه قوة ومعونة، تحارب بها.. لكي يعطيك نعمته وروحه القدوس، ليحارب عنك وينتصر فيك..

قل له: ما دامت الحرب للرب، وما دمت بدونك لا أستطيع شيئًا، حارب إذًا عني، وقدني في موكب نصرتك لأنني لن أنتصر بذراعي البشري، وإنما بك.

كن مثل يعقوب الذي صارع الرب "حَتَّى طُلُوعِ الْفَجْرِ" (تك٣٢: ٢٤)، أي أنه طول وقت الظلمة ظل يصارع، إلى أن أشرق الفجر في حياته، وطلع عليه النور..

إن الذي يُصارع مع نفسه ومع الله وينجح، يسهل عليه أن يصارع الخطية والشيطان، بالقوة التي أخذها من صراعه الأول.

بالنسبة إلى آدم، كان في الجنة وحده مع الله. ثم ظهرت في حياته أشياء جديدة، ومنها بدأت التجربة.

دخلت في حياته **حواء**، وأصبحت تمثل **العِشرة** التي تقود للخطأ.

ودخلت **الشجرة والثمرة** التي تمثل **المادة** في قيادتها للخطأ.

ودخلت في حياته **الحيّة**، التي تمثل **الشيطان** وإغراءاته الخاطئة.

ودخلت **الذات** التي في رغبتها أن تكبر وتقود للخطأ.

ووقف هؤلاء الأربعة أمام الإنسان: العشرة، والمادة، والشيطان، والذات، ولم يعد آدم كما كان وحده مكتفيًا بالله.

اتخذ له مصـــدرًا آخر للمعرفة غير الله، هو الحيّة. وجامل حواء على حساب الوصية، وأخذ منها وأكل. وسعت ذاته لتوجد لها كيانًا مستقلًا عن الله. **واهتم بالمادة، بعد أن كان روحيًا.** ودخلت الخطية إلى العالم، وانهزمت الطبيعة البشـــرية من الداخل ومن الخارج، وأصـــبحت الخطية الساكنة فيها تتعبها، وصار لزامًا عليها أن تصارع وتقاوم.

✞ كثيرون ضاعوا نتيجة اللامبالاة، نتيجة لإهمالهم ذواتهم.

تقودهم خطية إلى أخرى، وضياع إلى ضياع، وهم لا يدرون إلى أين هم ســـائرون، مثل كرة تتدحرج من على جبل، وتظل تتدحرج وهي لا تدري إلى أين تنتهي وما مصيرها..!

ضـع أمام نفسك حقيقة هامة: وهي أن الطريق طويل جدًا أمامك. وأنك ما تزال في الابتداء، واقفًا في مرحلة التوبة!

مرحلة الصراع يقع فيها الإنسان ويقوم، ثم يقع ويقوم.

ومرحلة التوبة، يترك فيها الخطية، لكي يسير نحو النقاوة.

ومن النقاوة يدخل إلى الحب، وأيضًا إلى القداسة...

ويظل ينمو في القداسة، حتى يصل إلى الكمال النسبي.

ويتدرج في مراحل من الكمال حتى يصل إلى صورة الله، يصل إلى كل الملء ويتوج أخيرًا بإكليل البر (٢تي٤: ٨).

إن كان الطريق طويلًا أمامك، وأنت ما تزال واقفًا عند أول مرحلة لا تتحرك، فمتى تصل إذًا؟

إن كنت ما تزال في مرحلة التوبة، أو أنت تصارع لكي تصل إليها، فمتى تصل إذًا إلى **الحب الإلهي وإلى الكمال؟** بل متى تصل إلى المرحلة التي تقود فيها الآخرين إلى الكمال؟ إن الرسول لم يقبل أن نقف في الطريق، أو حتى نسير.

بل قال: "ارْكُضُوا لِكَيْ تَنَالُوا" (١كو٩: ٢٤)، أي أسرعوا في الطريق إلى الله. نعم، كثير من القديسين، ساروا بسرعة عجيبة، ووصلوا.

خذوا مثالًا لذلك: القديس أغسطينوس، الذي عاش أول حياته في عمق الخطية: كيف أنه بدأ يعرف الله، ركض في طريقه الروحي بسرعة عجيبة، من خاطئ إلى تائب، إلى متأمل في الروحيات، إلى راهب، إلى

أسقف، إلى مُعَلِّم عظيم من معلمي الكنيسة الجامعة، وقائد في حياة الروح انتفعت به الأجيال...

كيف تصل، إن كنت تمشي في الطريق الروحي، ببطء، وإهمال، وتكاسل، وتراخ، ولا مبالاة، وأيضًا بنسيان ونوم؟!

تعترف بخطاياك، وترجع إليها! وتتناول، وتبقى كما كنت!

إنك تحتاج في طريقك، إلى عهد صادق مع الله، وإلى ثبات بلا رجعة ولا نكسة، بلا خيانة، بلا ضعف..

إن سرت في الطريق الروحي، فلا ترجع لأن "لَيْسَ أَحَدٌ يَضَعُ يَدَهُ عَلَى الْمِحْرَاثِ وَيَنْظُرُ إِلَى الْوَرَاءِ" (لو٩: ٦٢). امرأة لوط نظرت إلى الوراء فهلكت. كل القديسين التائبين، لما عرفوا الله، لم يرجعوا مرة أخرى إلى خطاياهم القديمة.

الحياة الروحية تحتاج إلى جدية، وتحتاج إلى ثبات... إنسان أحب الله وعاش معه، لا يمكن بعدئذ أن يخونه!

كانت خيانة من بني إسرائيل، أنهم بعد الخروج العجيب من أرض العبودية، رجعوا مرة أخرى، واشتاقوا إلى قدور اللحم في أرض مصر، وبكوا... وكانت نكسة منهم وخيانة لله.

الإنسان الروحي، لا بد أن يكون هدفه واضحًا، ويسير نحوه بثبات.

المسيح في طريق الفداء، ثبت وجهه نحو أورشليم. ودانيال النبي في صلاته، فتح نافذته المطلة على أورشليم. وهكذا نحن في نظرنا إلى الشرق، إلى الهيكل والمذبح، إنما لنا هدف ثابت نتجه إليه.

✞ الإنسان الروحي، من صفاته أيضًا: النمو...

مثل الشجر الذي هو دائم النمو، تمر عليه في الغروب، فيكون أكثر نموًا مما كان عليه في الصباح، نموًا هادئًا لا يلاحظه أحد، كما قال الكتاب: "هكَذَا مَلَكُوتُ اللهِ: كَأَنَّ إِنْسَانًا يُلْقِي الْبِذَارَ عَلَى الأَرْضِ، وَيَنَامُ وَيَقُومُ لَيْلًا وَنَهَارًا، وَالْبِذَارُ يَطْلُعُ وَيَنْمُو، وَهُوَ لاَ يَعْلَمُ كَيْفَ، لأَنَّ الأَرْضَ مِنْ ذَاتِهَا تَأْتِي بِثَمَرٍ. أَوَّلًا نَبَاتًا، ثُمَّ سُنْبُلًا، ثُمَّ قَمْحًا مَلآنَ فِي السُّنْبُلِ" (مر ٤: ٢٦-٢٨).

فهل أنت ما تزال بذارًا، أم صرت نباتًا، أم نموت فصرت سنبلًا، أم نضجت فصرت قمحًا يملأ السنبل؟

الإنسان الذي يتوقف نموه، هو عرضة للرجوع إلى الوراء.

كثيرون وضعوا كل آمالهم في أن يتوبوا، وظنوا أن التوبة هي نهاية المطاف، وتوقفوا عندها، فرجعوا إلى خطاياهم.

أما الذين نسوا ما هو وراء وتقدموا كل يوم إلى الأمام، شغلهم هذا النمو، وحصّنهم عن الرجوع إلى خلف.

إذا توقفت حياتك حينئذ تفتر وتبرد، وتترك محبتك الأولى. وحينئذ تكون معرضًا أن تعود إلى خطاياك القديمة، فاحذر التوقف.

عجيب جدًا أن نرى أناسًا، بدلًا من أن ينمو، يشتاقون لو رجعوا إلى حياتهم الأولى التي كانت أفضل من الآن!!

إنه نوع من الارتداد، تختلف نسبته من شخص إلى آخر.

ليت كل شخص منا، يدرك أن عدم النمو خطية يعترف بها كباقي الخطايا، خطايا اللسان والفكر والحواس والقلب والجسد.. وعلينا أن ننمو في كل شيء وبخاصة في محبتنا لله والتصاقنا به، ومذاقتنا له، ووجودنا معه...

غالبية الناس ينمون في المعرفة والخبرة، أكثر مما ينمون في الحب. نموهم مركز في العقل، وليس في القلب...

ما تزال شجرة المعرفة تمد جذورها في أرض العالم، حتى داخل الكنيسة، وفي محيط الوعظ والتأمل والممارسات الروحية.

إنما النمو الذي نقصده غير ذلك. إنه نمو في تعميق العشرة مع الله، نمو

في الاشـــتياق إليه وإلى ملكوته.. بحيث يكثر حديثنا كل يوم عن الله، ويزداد جذبنا للناس إليه..

حاولوا أن تنمو في حياتكم. وبنموكم سيزداد اتضاعكم...

لأنكم كلما تقتربون من الله الكلي القداســـة، على هذا القدر تشـــعرون بنقصكم وبشاعة خطاياكم، وترون الطريق إلى الكمال أطول..

دربوا أنفسكم على محبة الله، لأنكم تشتاقون إلى الملكوت.

الذين يحبون الله وملكوته، يحبون أيضًـــا الانطلاق من هذا العالم. أما الذين يحبون العالم، فإن تذكار الموت يرعبهم والحياة الأبدية لا تروقهم، ولا يهتمون بها، ولا تفرحهم...

بمحبة الله هذه، استطاع السواح والمتوحدون أن يعيشوا في البرية.

كانت محبة الله تشبع قلوبهم. لهذا نقول عنهم في صلاة القسمة: "سكنوا الجبال والبراري وشقوق الأرض، من أجل عظم محبتهم للملك المسيح"؛ إن الذي لم يذق الله ههنا على الأرض، لا يجد متعة في الأبدية، حيث يتغذى القديسون بمحبة الله وعشرته..

أخشى أن نكون غرباء عن الملكوت، وغرباء من الملك، ليست لنا خبرة بهذا الجو الروحي، لم نعش فيه، ولا عاش فينا..

ابدأ بالدخول في حياة الحب الإلهي، وحاول أن تنمو فيها.

وإن كان الطريق الروحي طويلًا، فاعلم أن أطول طريق أوله خطوة، ابدأ بهذه الخطوة نحو الله. وثق أن النعمة ستحملك إلى آفاق أوسع، ما دمت قد أظهرت سعيًا، حبك عمليًا بهذه الخطوة.. ولم تجد الطريق صعبًا ما دام الله يقودك...

سيروا مع الله، وثقوًا أنه سيعطيكم كما أعطى القديسين من قبل، وسيسهل طريقكم. ويتحقق فيكم قول الكتاب: "**وَأَمَّا مُنْتَظِرُو الرَّبِّ فَيُجَدِّدُونَ قُوَّةً. يَرْفَعُونَ أَجْنِحَةً كَالنُّسُورِ. يَرْكُضُونَ وَلاَ يَتْعَبُونَ. يَمْشُونَ وَلاَ يُعْيُونَ**" **(إش٤٠: ٣١).**

انسحاق القلب*

أول خطوة في ســـلســـلة خطواتنا في الطريق إلى الله. هي **خطوة التوبة وانسحاق القلب.**

حينما يبدأ الإنســـان في معرفة الله، والســـير في طريقه، تكون خطوته الأولى إليه، هي التوبة.

يترك طريقه القديم البعيد عن الله، ويقول للرب: "**طُرُقَكَ يَا رَبُّ عَرِّفْنِي. سُـــبُلَكَ عَلِّمْنِي، دَرِّبْنِي فِي حَقِّكَ وَعَلِّمْنِي" (مز٢٥: ٤، ٥).** وإذ يشـــعر بســـوء حالته، يندم على حياته القديمة كلها ويدينها. ولا يمكن أن يدين نفسه وينسحق قلبه، إلاَّ بالاتضاع...

والتوبة ليســـت خطوة يخطوها ويتركها، بل تســـتمر معه كل الحياة. لأنه كلما سار في طريق الرب، تتكشف له في حياته ضعفات وأخطاء لم تكن ظاهرة في بدء حياته الروحية، وهكذا يومًا بيوم، يشـــعر بمقدار الخطية التي كانت فيه، فيزداد ندمًا، ويزداد انسحاقًا واتضاعًا...

* مقال لقداسة البابا شنوده نُشر في مجلة الكرازة، بتاريخ ١٢ مايو ١٩٧٨م

ولكن كيف يمكن للإنسان أن يتوب؟

لا يمكن أن يتوب، إلاَّ إذا شـــعر بســـوء حالته، وبأنه ســـائر في طريق خاطئ؛ كما اتضح للابن الضال...

أما الإنســـان البار في عيني نفســـه، الذي لا يشـــعر أنه أخطأ، بل يبرر نفســـه باســـتمرار. ويعذر ذاته في كل عمل يعمله، فهذا لا يقترب أبدًا من التوبة. لأنه "لاَ يَحْتَاجُ الأَصِـــحَّاءُ إِلَى طَبِيبٍ، بَلِ الْمَرْضَـــى" (لو٥: ٣١)؛ إذًا ينبغي أن تشـــعر أنك مريض، لكي يشـــفيك الطبيب الأعظم، وإلاَّ فستبقى في مرضك...

والذين يتوبون على نوعين: نوع نادم منســـحق القلب. ونوع آخر تفرحه توبته، فيفتخر بها ويرتفع قلبه، فيسقط.

هناك شـــخص تتعبه خطايا كبيرة. كالخمر والزنا والرقص والتدخين والبعد عن الكنيســـة. فإن تخلص منها، يظن أنه قد وصـــل. وفي ذلك ينســـى أخطاء أخرى في داخله، لم يلتفت إليها بســـبب تركيزه في التعب من البشاعات التي يقع فيها...

ويظن هذا المســـكين أنـه خلص! أو أنـه تـاب، ويظل يحكي عن هذا (الخلاص) ويردد عبارة "كنت... وصرت...". وينسى في افتخاره الباطل،

ما في داخله من كبرياء، أو عناد، أو اعتداد بالرأي، أو ذاتية، أو تحايل، أو قسوة... وتبقى هذه الخطايا داخل نفسه، تنمو وتزداد وتحطمه...

والعجيب أن بعض المعلمين أو المرشدين، تشجيعًا لهؤلاء المبتدئين في التوبة، قد يمدحونهم ويشجعونهم أو يتملقونهم بألفاظٍ تلقي ستارًا على خطاياهم الباقية فلا يرونها.

والآفة الكبرى، أن يتحول هذا التائب! إلى الخدمة سريعًا. إذ يقولون له: "اذهب وحدث بكم صنع الرب بك"! فيملأ الدنيا حديثًا في كل مجال، أنا كنت خاطئًا، وكنت أفعل كذا وكذا. والآن أشكر الله ما عدت أعمل شيئًا من كل هذا. حياتي تغيّرت وتجدّدت، وتطهّرت وتقدّست، وصرت طبيعة أخرى...".

ووسط هذا الحديث عن نفسه، يفقد شعور الانسحاق... ولأن التوبة لم تكمل بعد، ولم تأخذ نصيبها النافع لها من الانسحاق ومن الندم ومن الشعور بفداحة الخطية، ولم ترتوِ النفس بالدموع وبالتذلل أمام الله... لذلك سرعان ما ينسى هذا الإنسان خطيته، وينتقل بسرعة إلى تعليم غيره وإلى شرح خبراته! دون أن يكتمل نضجه الروحي...

وما أسرع وهو خادم أن تعود إليه ضعفاته، فيصبح عثرة! وهذه

الضـعفات قد يبقى فيها، دون أن يشـعر بها، ودون أن يدين ذاته عليها، بل يتجاهلها في مشاغل الخدمة!

أما الإنسـان المنسـحق، الذي يضـع خطيته أمامه في كل حين، يبكي عليها، ويلوم نفسـه عليها، مهما بلغ من فضـيلة، فإن مثل هذا الإنسـان، يحتفظ على الدوام باتضاعه، ويحتفظ بالنعمة، فلا يسقط. وما أصدق قول القديس الأنبا أنطونيوس: "**إن ذكرنا خطايانا، ينسـاها لنا الله؛ وإن نسـينا خطايانا، يذكرها لنا الله**".

نماذج لشخصيات منسحقة

✞ داود النبي

داود النبي أخطأ، وغفر له الله، فقال له ناثان الكاهن: "الرَّبُّ أَيْضًا قَدْ نَقَلَ عَنْكَ خَطِيَّتَكَ. لاَ تَمُوتُ" (٢صـم١٢: ١٣)؛ ولكن داود بعد سـماعه كلمة المغفرة، لم ينقطع إطلاقًا عن الدموع، حتى صـارت له دموعه شـرابًا نهارًا وليلًا، وحتى بلل فراشه بالدموع، وقال للرب: "انصت إلى دموعي".

كانت دموعه دليل انسحاق وتوبة، وكانت دليل حب وتأثر.

إن العبد الذي يخاف العقوبة، يبكي خوفًا. أما الابن فيبكي حبًا وهو متأثر، كيف أغضب أباه...

✞ بولس الرسول

ومثل داود في انسحاق قلبه، كان بولس الرسول... اضطهد الكنيسة حينما كان شاول الطرسوسي، ولكنه رُحم لأنه فعل ذلك بجهل. وغفر له الله خطيئته، بل اختاره للخدمة رسولًا للأمم. وغَير اسمه إلى بولس، وارتفع بولس في الفضيلة، حتى صعد إلى السماء الثالثة ورأى أشياء لا ينطق بها. وارتفع في الخدمة حتى تعب أكثر من جميع الرسل، وبشر من بلاد آسيا غربًا حتى أسبانيا، وكانت له كثرة من الاستعلانات، وتكلم بألسنة أكثر من الجميع.

ومع كل هذه الخدمة، ومع عمق الفضيلة، ظلّ بولس منسحقًا، يذكر خطيئته القديمة في خجل وفي أسى، على الرغم من مغفرتها.

يقول: "الْخُطَاةَ الَّذِينَ أَوَّلُهُمْ أَنَا... لِيُظْهِرَ يَسُوعُ الْمَسِيحُ فِيَّ أَنَا أَوَّلًا كُلَّ أَنَاةٍ..." (١تي١: ١٥، ١٦). ويقول أيضًا: "وَآخِرَ الْكُلِّ كَأَنَّهُ لِلسِّقْطِ ظَهَرَ لِي أَنَا، لأَنِّي أَصْغَرُ الرُّسُلِ، أَنَا الَّذِي لَسْتُ أَهْلًا لأَنْ أُدْعَى رَسُولًا، لأَنِّي اضْطَهَدْتُ كَنِيسَةَ اللهِ" (١كو١٥: ٩).

نقول: هذا الاضطهاد قد مضى وانتهى، وأنت الآن الرسول العظيم، مجد خدمة الأمم، رجل الاستعلانات، فيقول: **أنا لن أنسى خطيئتي، لأنني**

اضطهدت كنيسة الله! ما أعجبها نفسًا منسحقة!

✞ بطرس الرسول

وبطرس الرسول أخطأ، وغفر له الرب خطيئته، وأعاده إلى رسوليته، وقال لـه: "ارْعَ غَنَمِي، ارع خرافي" (يو٢١: ١٧). وتعـب كثيرًا في الكرازة والخدمة، وآمن الآلاف على يديه، وكان شجاعًا في الشهادة للرب، وصنع معجزات عديدة. ومع ذلك في وقت اسـتشـهاده، أصـرّ أن يُصـلب وهو منكس الرأس، لأنـه كـان مـا يزال يـذكر خطيئتـه التي تركهـا منـذ زمـان، وغفرها الرب له. إنما هي النفس المنسحقة.

من فضائل الانسحاق

الذي يعرف الانسـحاق، ويختبر الشـعور بعدم الاسـتحقاق، لا شـك أنه يكتسب فضائل عديدة جدًا تنقي قلبه.

١) **يتخلص من قسـاوة القلب**، ويصـير عطوفًا على كل أحد، في حنان حتى على أشـــرّ الخطاة. لا يدين الخاطئ بل يبكي عليه بحرقة قلب، متوسلًا لأجل خلاصه.

٢) **ويكتسب أيضًـا الاتضـاع** مثل العشـار الذي لم يسـتطع أن يدخل إلى داخل بيت الرب، إنما وقف من بعيد، لا يجرؤ أن يرفع عينيه إلى فوق،

يقرع صـــــدره وهو منكس الرأس، ويقول: "اللّهُمَّ ارْحَمْنِي، أَنَـا الْخَـاطِئَ" (لو١٨: ١٣).

أين هذا من التائب الذي فقد انســـحاقه وصـــار يقول: "حينما كنت في الخطيـة كنـت أفعـل... أمـا الآن فـإني..."، "في أيـام خطيئتي كنـت وكنت...".

إن أسـلوب التحدث عن الخطية كعمل مضـى، لا يتفق مع الانسـحاق، فالقلب المنسحق يقول كل حين: إنني إنسان خاطئ.

إننا نصـلي في الكنيسـة باسـتمرار ونقول للرب: "الخطية هي من طبعي، وأنت طبعك الغفران".

عبارة "كنت خـاطئًـا" تحمـل لونًـا من الكبريـاء، وتحمـل دليلًا على عدم معرفة النفس، وعدم التدقيق في محاسبتها.

إن الفرق بيني وبين الأيام الأولى "هو أنني كنت قبلًا خاطئًا، ولا أدري أنني خاطئ". أما الآن فإنني خاطئ، وأعرف تمامًا أني خاطئ.

لا أقسم عمري إلى حياة قبل التوبة، وحياة بعد التوبة، إنما أقول إن عمري كله هو سـعي إلى التوبة، أنا محتاج اليوم إلى التوبة، مثلما كنت محتاجًا إليها في بدء حياتي الروحية. أنا أعرف جيدًا مقدار ضـــعفي وقابليّتي

للسقوط. وأعرف أنه لو تخلت النعمة عنّي لحظة واحدة، لشابهت الهابطين في الجب...

أنا لست أقوى من الذين سقطوا، لأني أسقط كل يوم. بل إنني أستمع في حرص شديد إلى قول الكتاب عن الخطية، أنها: **"طَرَحَتْ كَثِيرِينَ جَرْحَى، وَكُلُّ قَتْلاَهَا أَقْوِيَاءُ" (أم٧: ٢٦).**

لستُ أفتخر باطلًا وأقول عن توبتي كما يقول البعض: "إنني تجددت، وتقدست، وتخلصت، وتطهرت". إنما أطلب هذه القداسة كل يوم، وأطلب الخلاص كل يوم، وأصرخ إلى الله في كل صلاة: "قَلْبًا نَقِيًّا اخْلُقْ فِيَّ يَا اَللهُ، وَرُوحًا مُسْتَقِيمًا جَدِّدْ فِي دَاخِلِي" (مز ٥١: ١٠). وأنا أعرف أخطائي وضعفاتي ونجاساتي وأقول: "طَهِّرْنِي بِالزُّوفَا فَأَطْهُرَ. اغْسِلْنِي فَأَبْيَضَّ أَكْثَرَ مِنَ الثَّلْجِ" (مز ٥١: ٧).

إن الذي لا يشعر بخطيئته، يرتكب بذلك أكبر خطيئة.

ما أحوجنا أن نتأمل صلوات القديسين، وبكاءهم على خطاياهم، واتضاعهم أمام الله وأمام الناس، بل حتى أمام الشياطين، واعترافهم بخطاياهم في ذلة، كل حين.

إن الذي لا تنسحق نفسه، سيصل إلى العجرفة يومًا ما.

والذي ينســـى خطاياه، ولا يذكر ســـوى اختباراته الروحية، هو عُرضـــة لمحاربة الشـــياطين التي تخفض رأســـه المتعالية. بل إنه قد تتخلى عنه النعمة حينًا، لكي يعرف ضـــعفه، ولا يذكر إلا أنه "مُنْتَشَـــلَ مِنَ النَّارِ" (زك٣: ٢).

إن الذي يظن أنه قد ارتفع عن مرحلة التوبة، وبدأ يصـــعد في درجات القداسة، هو حتمًا مخدوع من الشياطين.

مســـكين مَن يظن أنه ترك التوبة، وبدأ في الثيئوريات وحدود ما فوق الصـــلاة. ويفتخر بأنه ذاق المواهب الروحية، واســـتحق أن يتكلم بألســـنة، وذاق حياة الملء التي لم يختبرها غيره من الضـــعفاء!! بل أصـــبح يمنح هذه المواهب للآخرين!

أرســـانيوس القديس العظيم بعد ســـنوات طويلة في الجهاد الروحي وفي عمق الفضيلة، يعترف أنه لم يفعل شيئًا، ويصلي قائلًا: "**هبني يا رب أن أبدأ**". وبولس الرســـول العظيم يقول: "لَيْسَ أَنِّي قَدْ نِلْتُ أَوْ صِـــرْتُ كَامِلًا، وَلكِنِّي أَسْعَى لَعَلِّي أُدْرِكُ" (في٣: ١٢).

هذا هو الاتضاع وإنكار الذات، اللذان استطاع بهما القديسون أن يستأهلوا لعمل النعمة. وكلما وضعوا أنفسهم وأخفوها، رفعهم الله وأظهرهم.

ما أجمل قول مار إسـحاق في أعمال المتضـعين المنسـحقين، وفي قيمة الاتضاع الذي يفوق عمل المعجزات... يقول:

"الذي يعرف خطاياه، خير ممن ينفع الخليقة بمنظره"...

"والذي يتنهد على نفسه كل يوم، أفضل من الذي يقيم الموتى بصلاته".

"والذي استحق أن ينظر خطاياه، أفضل من الذي ينظر ملائكة".

بعض مظاهر الكبرياء*

تكلمنا عن انسحاق القلب باعتباره الخطوة الأولى في الطريق إلى الله، كسببٍ للتوبة ونتيجةٍ لها. ولما كانت الكبرياء هي عائقٌ ضخم أمام التوبة، لذلك أحب أن أحدثكم عن بعض مظاهر ونتائج الكبرياء.

لو عرف الإنسان ما هي الأضرار التي تنتج عن الكبرياء، لفهم تمامًا قيمة الاتضاع. قال أحد القديسين: "إن كل خطية تحارب الفضيلة التي تضادها". فالخيانة مثلًا تحارب الأمانة، والزنا يحارب العفة. والكذب يحارب الصدق. **أما الكبرياء فتحارب كل الفضائل...**

سبب الخطية الكبرياء

وما أروع قول الكتاب في ذلك: **"قَبْلَ الْكَسْرِ الْكِبْرِيَاءُ، وَقَبْلَ السُّقُوطِ تَشَامُخُ الرُّوحِ" (أم١٦: ١٨). الكبرياء تجعل النعمة تتخلى، فيسقط الإنسان.** والنعمة تتخلى، لكي إذا سقط الإنسان يشعر بضعف. وفي شعوره بضعفه يتضع. وهكذا تعالجه النعمة بالتخلي. هذا إذا استفاد الإنسان من سقوطه فاتضع.

* مقال لقداسة البابا شنوده نُشر في مجلة الكرازة، بتاريخ ١٩ مايو ١٩٧٨م

الكبريـاء هي الخطيـة الخطيرة التي قـال الكتـاب أن الرَّب يقـاومهـا (١بط٥:٥).

كم أشفق الرَّب على الخطاة، واعتبرهم مرضـى يحتاجون إلى طبيب وإلى علاج... أشـفق على المرأة الزانية التي ضُـبطت في ذات الفعل، ودافع عنها وصرفها بسلام. وأشفق على الخاطئة التي بللت قدميه بدموعها في انسحاق. وأشفق أيضًا على العشار وفَضَّلَه على الفريسي المتكبر.

أما المتكبرون فقد وقف ضدهم، ويقول الرسول: "**اللهَ يُقَاوِمُ الْمُسْتَكْبِرِينَ، وَأَمَّا الْمُتَوَاضِعُونَ فَيُعْطِيهِمْ نِعْمَةً**" (١بط ٥:٥).

إن كـان الأمر هكـذا فـاهرب من الكبريـاء... ولكن العجيـب أن غـالبيـة المتكبرين يدَّعون أنهم غير متكبرين. وهذا من الكبرياء!

شـرح القديس أغسـطينوس أن المتكبرين يبيدون كالدخان فقال: "**الدخان يرتفع جدًا إلى فوق! وفيما هو يرتفع يتبدد وينتهي. بعكس اللهيب الذي لا يرتفع كالدخان. ولكنه يبقى بقوته**".

هنـاك أشـخـاص حينمـا تعينهم النعمـة، ويجدون أن حياتهم قد تغيرت يفتخرون قائلين: "أنا حياتي تغيرت وتجددت... صـرتُ إنسـانًا آخر"، ويشـرحون حياتهم للناس بطريقة "كنت... وأصـبحت...". وإذ يفتخر

الشخص، تبعد عنه النعمة فيسقط. ليته يتذكر قول الكتاب: "مَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ قَائِمٌ، فَلْيَنْظُرْ أَنْ لاَ يَسْـــقُطَ" (١كو١٠: ١٢). إن كنت قائمًا، فلا تظن قيامك وضعًا دائمًا لا يتغير. وتذكر القديسين الذين سقطوا. وهكذا يتضع قلبك، وتحترس لنفسك.

الاتضاع يحفظك، لأنه قريبٌ هو الرَّب من المنسحقين بقلوبهم.

الإنسان المتضع، إذ يعترف بضعفه، يخاف فيحترس ويدقق، وهكذا يبعد عن العثرات، فلا يســقط. أما المتكبر، فيعتز بقوته ولا يبالي، فتضـــربه الخطية من حيث لا يدري.

إن الشيطان له خبرة آلاف السنين في محاربة بني البشر.

وقد يجدك محترسًـــا من خطية معينة فلا يحاربك بها، ولكنه يهاجمك من جهة أخرى، ظننت نفسك فيها قويًا، ويسقطك...

وقد يتركك بلا حرب فترة، حتى تظن أنك قد ارتفعت فوق مســـتوى الحروب، وتستهين بالاحتراس، وحينئذ يرجع إليك وأنت غير مستعد. وإذ تسقط تتأكد أنك لست فوق السقوط.

لا تظن أن السقوط للمبتدئين فقط، وأنك لست من المبتدئين.

عندما كنت متضـــعًا ومحترسًـــا، كنت تصـــلي بحرارة أن يهبك الله معونة

لكيلا تسقط. أما الآن فأنت لا تصلي لأجل هذا السبب، بل ربما تصلي لأجل الآخرين فقط، لأنهم معرّضون للسقوط وليس أنت!! وهكذا تبقى بلا معونة أمام العدو...

نتائج الكبرياء

من نتائج الكبرياء – غير السقوط – محاولة تبرير الذات باستمرار.

المتكبر باستمرار يدافع عن نفسه. لا يحب مطلقًا أن يبدو في صورة المخطئ. هو دائمًا بار في عيني نفسه، ويريد أن يكون بارًا في أعين الناس. وإن نَبَهَه أحد إلى خطأ واضح، ربما يحاول أن يغطيه بالكذب أو بالأعذار، ناسيًا توبته!! **آدم لم يعترف بخطيئته، بل حاول أن يبرر ذاته، وكذلك حواء، وورثنا عنهما تبرير النفس!**

والخاطئ يضيف إلى خطيئَتَه التي يبررها، خطيئَة التبرير.

وما أكثر الحيل التي يلجأ إليها الإنسان في التبرير، تخرج جميعها عن النطاق الروحي. وتصير فيها الذات مركز التصرف.

ما أصعب كلمة (أخطأت) على المتكبّر... إنها تجرحه...

وقد يقولها أحيانًا إن كانت تجلب له مديحًا. أو إن كانت صورة الاتضاع

ترضـــي كبرياءه. ولكنه في داخله، لا يشـــعر إطلاقًا أنه أخطأ. الكلمة قد تخرج من فمه وليس من قلبه. ويقولها – إذا قالها – بلون من الســياســة، وليس بروح الاتضاع... بل بروح المنفعة.

ولهذا فإن المتكبر بعيد عن الاعتراف والشعور بالخطأ.

كثير من اعترافات المتكبرين، عبارة عن شـــكوى من أخطاء الناس إليهم. إنهم لا يعترفون بل يدينون غيرهم. في كل مشـكلة، لا بد أن يكون غيرهم هو المخطئ، فمن غير المعقول أن يخطئوا هم!!

لذلك فإن المتكبر كثير الجدال والنقاش لإثبات براءته...

إن التعامل معه ليس ســـهلًا، والتفاهم معه ليس ســـهلًا. يريد أن يطيعه جميع الناس، ومن الصـعب عليه أن يطيع أحدًا. التفاهم عنده ليس معناه أن يفهم رأي الطرف الآخر، إنما تفاهمه مع غيره معناه أن يقبل هذا الغير رأيه، ويقتنع به...

وإن لم يقتنع غيره، قد يثور ويغضب... ويعالج الموضوع بأعصابه ما دام لم يستطع معالجته بالرأي والفكر والإقناع.

لهذا فإن الغضب زميل للكبرياء، يلازمها كثيرًا وتلازمه...

ولأن المتكبر لا يتنازل مطلقًا عن رأيه، ويظن أن التنازل دليل على

الخضوع لا يناسب كرامته، فلهذا يحاول إثبات رأيه بكافة السبل... لا بد أن يكون رأيه هو الحق، لأجل كرامته...

ونتيجة لهذا، يحول الخطأ إلى مبدأ وإلى عقيدة!

إن عاتبته على خطأ، يحاول أن يثبت أن هذا الخطأ أمر مقبول وسليم منطقيًا، وربما يبحث عن آية لإثبات صحته، أو قصة لقديس أو قول لمشهور، ونسمي هذا (فلسفة الأخطاء).

إنسان أخذ إجازة مرضية بدون وجه حق، أو أخذ (خلو رجل)، أو كسب كسبًا غير مشروع، أو تملص من ضريبة، أو كسر يوم الرب... كل هذا له تعليلات عنده تُثبت أنه على حقٍّ.

وهنا تختفي المثاليات، ويختفي الحقُّ، وتبقى الذات والكبرياء...

إن المتكبرين – بهذا الوضع – يقدمون موازين جديدة للخير والشر، تتفق مع ما يريدونه من كرامة، وما يخفونه من أخطاء. مثلما فعل الوجوديون لكي يثبتوا ذواتهم، فغيروا موازين الخير، بل أنكروا وجود الله لكي يتمتعوا تمتعًا خاطئًا بوجودهم!

وما أسهل أن يسمي المتكبرون الأخطاء بغير أسمائها، أو بأسماء فضائل، فتلبس الذئاب ثياب الحملان...

التدليل الذي يفسد الابن يسمونه **عطفًا! والقسوة** التي تعقد الأبناء يسمونها **حزمًا! والحيلة** المملوءة خبثًا وكذبًا، لا مانع من أن تُسمى **حكمة!** بل حتى الرقص واللهو يسمونه **فنًا..!** وإن دخل هذا المنهج في العقيدة، ما أسهل أن ينزلق المتكبر به إلى البدعة وإلى الهرطقة. ذلك لأن من مظاهر الكبرياء الاعتداد بالرأي والثقة بالنفس، والعناد، والإصرار على الخطأ. وهذه كلها من دعائم الهرطقة...

وفي كل ذلك وغيره يفقد المتكبر وداعته...

بعكس المتواضع. فإنه إنسان رقيق لطيف متواضع، سهل التعامل مع الآخرين، ولهذا فهو محبوب من الكل، يخضع لهم بروح الحب فيكسبهم. وإن وجدت مشكلة يحلها بوداعة الحكمة... أما المتكبر فإنه ليس مخطئًا من الناحية الروحية فقط، بل اجتماعيًا أيضًا...

الإنسان المتكبر هو أيضًا ضد الله، والله ضده...

المتكبر كل ما يفعله من فضيلة ينسبه إلى نفسه، وليس إلى عمل الله معه. وخطاياه قد ينسبها إلى نسيان الله له!

والعجيب أن الكبرياء قد تدخل في العقيدة أيضًا، مثل قول البعض: "يجب أن تطالب بحقوقك في دمِ المسيح"! أي حقوق لك؟ وأنت إنسان

خاطئ محكوم عليه بالموت، وعاجز عن إنقاذ نفسه... ومديون لله وعاجز عن إيفاء ديونه! والله من فرط رحمته، خلصك مجانًا بنعمته... فإن كان خلاصك هبة من الله؛ فكيف تطالب بحقوق أيها الخاطئ المديون؟!

إن الخاطئ يقف أمام الله دائمًا خاطئًا، يطلب في انسحاق وشعور بعدم الاستحقاق. لا يعتبر أن له حقًّا... وبهذا يهبه الله كل شيء. أما الذي يطالب الله بحقوق، إنما يوقف الله كمديون أمامه، لم يعط الناس حقوقهم بعد!!

علامات الاتضاع*

أتابع معكم حديثنا عن الاتضاع... ما هو الاتضاع، وما هي علاماته؟

التواضـــع هو عدم اعتداد بالذات. هو عدم ارتفاع القلب من الداخل: والقلب إذا ارتفع من الداخل، تكون له علامات خارجية تدل على ذلك. ولهذا فإن للاتضاع علامات داخلية وخارجية. وهو قبل كل شيء يبدأ في القلب من الداخل.

التواضع هو أن تشعر أنك إنسان خاطئ وضعيف، وأنك لا تستحق شيئًا. وأن تعامل نفسك وغيرك طبقًا لهذا الشعور...

كل خير تعمله، تنســـبه إلى عمل الله فيك، الله الذي يُخرج من الجافي حلاوة.

تقول لنفسك: أنا من ذاتي لست شيئًا، ولكن الله الرحوم "الْمُقِيمِ الْمِسْكِينَ مِنَ التُّرَابِ، الرَّافِعِ الْبَائِسَ مِنَ الْمَزْبَلَةِ لِيُجْلِسَـــهُ مَعَ أَشْـــرَافٍ، مَعَ أَشْـــرَافِ شَـعْبِهِ" (مز١١٣: ٧، ٨). وعندما يقيمك الرَّب من التراب، تظل تردد مع المرتل: "لَصِقَتْ بِالتُّرَابِ نَفْسِي" (مز١١٩: ٢٥).

* مقال لقداسة البابا شنوده نُشر في مجلة الكرازة، بتاريخ ٢٦ مايو ١٩٧٨م

هذا من الناحية المطلقة، أما من الناحية النسبية.

فتقول: "أنا أكثر خطية من جميع الناس، وأكثرهم ضعفًا وجهلًا، وأيضًا أكثرهم عدم استحقاق. فلا تظن أنك أفضل من أحد".

ويكون لك هذا الشعور حقيقيًا في أعماقك، ويستمر معك دائمًا.

سُئل أحد القديسين: ما هو الاتضاع؟ فقال: هو معرفة الإنسان لذاته... إذًا فليس الاتضاع أن ترى نفسك كبيرًا، ولكنك حبًا في الفضيلة تصغر نفسك! ففي معرفتك أنك كبير نوع من الكبرياء، وبالمثل شعورك بأنك تُصغّر نفسك...

إنما الاتضاع أن تعرف نفسك تمامًا أنك ضعيف وخاطئ وغير مستحق... وأن تعامل نفسك بما يناسب هذا.

والتواضع كما يكون أمام النفس وفي أعماقها. يكون أيضًا أمام الله، وأمام الناس وحتى أمام الشياطين...

فأنت أمام الله تعترف بضعفك وبفضله عليك، وبأنك بدونه لا تستطيع شيئًا، ولذلك كما تعترف له، تصلي طالبًا معونته.

وأمام الناس لا تتحدث عن ذاتك، ولا تتكبر ولا تنتفخ، ولا ترتفع على أحد، ولا تعامل أحدًا كما لو كنت أفضل منه. بل تعامل الكل باحترام، وكما

قال الشـــيخ الروحاني: "في كل مكان حللت فيه، كن صـــغير إخوتك وخديمهم".

أما التواضـع أمام الشياطين، فمن أعظم أمثلته القديس أنطونيوس الكبير، الذي كان يقول للشياطين: "أيها الأقوياء، ماذا تريدون منّي أنا الضعيف؟ أنا عاجز عن مقاتلة أصغركم".

القديس المتواضع لا ينتهر حتى الشياطين...

ولذلك فإن الملاك ميخائيل لما انتهر الشيطان، قال له: "لينتهرك الرَّب يا شـــيطان، لينتهرك الرَّب". القديســـون المتواضـــعون، ما كانوا يشـــتمون الشياطين، ولا يأمرونهم في عظمة، لأن شيطانًا لا يخرج شيطانًا.

التواضع الحقيقي ليس مظاهر خارجية أو لونًا من التمثيل...

هناك إنسـان يضـرب مطانية بغير اتضـاع. تكون رأسـه في التراب وقلبه مرتفعًا فوق السـحاب... يقول كلمة اتضـاع، وكلمة أخطأت، وقلبه ليس مقتنعًا بما يقوله لسـانه، بل ربما يضـرب مطانية بلون من السـياسـة أو كسب المواقف!!

ليس التواضـع رقة من الخارج وألفاظًا متنازلة، وفي القلب كبرياء وعظمة، وثقة واعتداد بالنفس...

✞ التواضع أيضًا على نوعين تواضع في الجسد وتواضع الروح...

الجسد يتضع في منظره، فلا يجلس أو يمشي في خيلاء. وأيضًا نظراته وملامحه تكون متواضعة، وألفاظه وحركاته وملابسه وزينته تكون كذلك، أما تواضع الروح فهو ما يسمونه مسكنة الروح، أو المسكنة بالروح، التي أعطاها السيد المسيح أولى التطويبات.

يقول البستان إن هناك عجرفة علمانية، وعجرفة رهبانية...

العجرفة العلمانية: خاصة بالعظمة في المظهر الخارجي، كالملابس الفاخرة، والزينة العالية، والتحلي بالحلى، ومظاهر الثراء والأثاثات، والفرح بالألقاب والشهرة والمناصب، وما إلى ذلك...

أما **العجرفة الرهبانية:** فهي التباهي بألوان النسك الظاهر، كالصوم إلى ساعة متأخرة، ورفض أنواع معينة من الطعام، وأخذ مظهر الوحدة والحبس والصمت أمام الناس، وربما الفرح بأن يكون الإنسان نحيلًا حتى يعرف الناس عنه أنه ناسك!!

الراهب المتواضع قد لا يرفض أي طعام يقدم إليه، يأخذه أمام الناس، ولا يأكله، بل يعطيه في الخفاء صدقة للفقراء...

إن الله يريد اتضاع القلب، يحب الروح المتضعة المنسحقة... وإذا كان

القلب متضعًا، فكل العلامات الخارجية للاتضاع تكون طبيعية.

كلام الاتضاع، والسلوك المتضع في المعاملة، ونكران الذات، كل ذلك يكون مجرد تعبير طبيعي غير مقصود. وكما يقول الكتاب: "اَلإِنْسَانُ الصَّالِحُ مِنْ كَنْزِ قَلْبِهِ الصَّالِحِ يُخْرِجُ الصَّلاَحَ... فَإِنَّهُ مِنْ فَضْلَةِ الْقَلْبِ يَتَكَلَّمُ فَمُهُ" (لو٦: ٤٥).

أول سقوط في العالم، كان تشامخ الروح، كان ارتفاع القلب، حينما ارتفع قلب الشيطان من الداخل، وأراد أن يكون الأعظم...

✞ فما هو القلب المتضع إذًا؟ وما هي علاماته؟

أول علامة للقلب المتضع هي الهدوء الذي يقول عنه الكتاب: "الرُّوحِ الْوَدِيعِ الْهَادِئِ، الَّذِي هُوَ قُدَّامَ اللهِ كَثِيرُ الثَّمَنِ" (١بط٣: ٤).

الشيطان دائمًا يحب الضجيج والبهرجة التي تتنافى مع الوداعة. أما القديسون المتواضعون فكانوا دائمًا ودعاء وهادئين...

السيد المسيح قيل عنه إنه: "لاَ يُخَاصِمُ وَلاَ يَصِيحُ، وَلاَ يَسْمَعُ أَحَدٌ فِي الشَّوَارِعِ صَوْتَهُ. قَصَبَةً مَرْضُوضَةً لاَ يَقْصِفُ، وَفَتِيلَةً مُدَخِّنَةً لاَ يُطْفِئُ" (مت١٢: ١٩، ٢٠). وهذا منتهى الوداعة والهدوء.

حتى في يوم صلبه كان بنفس الوداعة "ظُلِمَ أَمَّا هُوَ فَتَذَلَّلَ وَلَمْ يَفْتَحْ فَاهُ.

كَشَـــاةٍ تُسَـــاقُ إِلَى الذَّبْحِ، وَكَنَعْجَةٍ صَـــامِتَةٍ أَمَامَ جَازِّيهَا فَلَمْ يَفْتَحْ فَاهُ" (إش٥٣: ٧).

✝ في قصة لقاء الله مع إيليا

نســمع أنه كانت هناك زوبعة ولم يكن الله في الزوبعة، ونار ولم يكن الله في النار، وزلزلة ولم يكن الله في الزلزلة. وإذا صـــوتٌ منخفضٌ خفيفٌ يقول له: "مَا لَكَ ههُنَا يَا إِيلِيَّا؟" (١مل١٩) وكان صوت الله.

إن الإنسان المتشامخ المرتفع، يُعرّض نفسه لسخط الله عليه!

انظروا ماذا يقول الكتاب: "فَإِنَّ لِرَبِّ الْجُنُودِ يَوْمًا عَلَى كُلِّ مُتَعَظِّمٍ وَعَالٍ، وَعَلَى كُلِّ مُرْتَفِعٍ فَيُوضَـــعُ، وَعَلَى كُلِّ أَرْزِ لُبْنَانَ الْعَالِي الْمُرْتَفِعِ، وَعَلَى كُلِّ بَلُّوطِ بَاشَـــانَ. وَعَلَى كُلِّ الْجِبَالِ الْعَالِيَةِ، وَعَلَى كُلِّ التِّلاَلِ الْمُرْتَفِعَةِ. وَعَلَى كُلِّ بُرْجٍ عَالٍ، وَعَلَى كُلِّ سُـورٍ مَنِيعٍ. وَعَلَى كُلِّ سُـفُنِ تَرْشِـيشَ، وَعَلَى كُلِّ الأَعْلاَمِ الْبَهِجَةِ. **فَيُخْفَضُ تَشَامُخُ الإِنْسَانِ، وَتُوضَعُ رِفْعَةُ النَّاسِ، وَيَسْمُو الرَّبُّ وَحْدَهُ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ**" (إش٢: ١٢-١٧).

حقًا، قبل الكســـر الكبرياء، وقبل الســـقوط تشـــامخ الروح. ويســـقط المتشامخون لأن الرب يقاومهم، لأن للرب يومًا عليهم.

المتواضـع وديع هادئ. يقدم الخد الآخر، ويمشـي الميل الثاني. إذا أخذوا

ثوبه، يترك الرداء أيضًا. لا يقاوم الشر. لا يدافع عن نفسه، بل الرب هو الذي يدافع عنه. لا يرتفع، وإنما كلما يتواضع فإن الرب يرفعه.

المتواضع يقول: "لا أنا بل الرب... أنا لست شيئًا".

أما المستكبر فيتركز حول كلمة أنا، وتدور حولها كل اهتماماته.

مثلما وقف الفريسي المتكبر، يتحدث عن أعماله. ومثل التجربة الشديدة التي وقع فيها أيوب الصديق، حينما تحدث عن نفسه (أي٢٩).

وهكذا قال أيوب: "حِينَ كُنْتُ أَخْرُجُ إِلَى الْبَابِ فِي الْقَرْيَةِ، وَأُهَيِّئُ فِي السَّاحَةِ مَجْلِسِي. رَآنِي الْغِلْمَانُ فَاخْتَبَأُوا، وَالأَشْيَاخُ قَامُوا وَوَقَفُوا، صَوْتُ الشُّرَفَاءِ اخْتَفَى، وَلَصِقَتْ أَلْسِنَتُهُمْ بِأَحْنَاكِهِمْ. لأَنَّ الأُذُنَ سَمِعَتْ فَطَوَّبَتْنِي، وَالْعَيْنَ رَأَتْ فَشَهِدَتْ لِي. لَبِسْتُ الْبِرَّ فَكَسَانِي. كَجُبَّةٍ وَعَمَامَةٍ كَانَ عَدْلِي. أَبٌ أَنَا لِلْفُقَرَاءِ" (أي٢٩: ٧-١٥).

مشكلة أيوب الصديق، إنه كان بارًا وكاملًا، ويعرف عن نفسه أنه بار وكامل. فكان يتعبه ما يعرفه عن نفسه من برٍ.

لذلك متى انتهت تجربته؟ انتهت حينما شعر بضعفه أمام الله، ووضع يده على فمه، وقال: "نَطَقْتُ بِمَا لَمْ أَفْهَمْ. بِعَجَائِبَ فَوْقِي لَمْ أَعْرِفْهَا"، وقال أيضًا: "لِذلِكَ أَرْفُضُ وَأَنْدَمُ فِي التُّرَابِ وَالرَّمَادِ". ولما وصل إلى التراب

والرماد انتهت تجربته وردّ الرَّب سبيه (أي٤٢).

على أن قومًا قد لا يتركزون حول كلمة (أنا) وإنما حول كلمة (نحن). إنها كبرياء الذات في شكل (المجموعة).

كما يفتخر إنسان ببلده، أو بعشيرته أو بجنسه، أو بجامعته. أو كما افتخر الألمان بأنهم من الجنس الآري، وكما افتخر اليهود بأنهم أولاد إبراهيم، وكما افتخر الفريسيون بأنهم الجماعة المدققة...

وقد يحاول من يفتخر أن يخفي افتخاره بعبارة شكر لله...

كما بدأ الفريسي افتخاره بقوله: "اَللّهُمَّ أَنَا أَشْكُرُكَ أَنِّي لَسْتُ مِثْلَ بَاقِي النَّاسِ" (لو١٨: ١١). وكما بدأ أيوب افتخاره وبقوله: "يَا لَيْتَنِي كَمَا فِي الشُّهُورِ السَّالِفَةِ وَكَالأَيَّامِ الَّتِي حَفِظَنِي اللهُ فِيهَا، حِينَ أَضَاءَ سِرَاجَهُ عَلَى رَأْسِي، وَبِنُورِهِ سَلَكْتُ الظُّلْمَةَ. وَرِضَا اللهِ عَلَى خَيْمَتِي" (أي٢٩: ٢-٤).

وما أصعب ما يتطور إليه الإنسان في كلمة (أنا)، حتى لا تعجبه كل عظمة ذاته، فيطلب المواهب واجتراح المعجزات.

وينسى كل الآيات الداعية إلى الاتضاع، ولا يتذكر إلاَّ "وَلكِنْ جِدُّوا لِلْمَوَاهِبِ الْحُسْنَى" ناسيًا ما قيل بعدها "**وَأَيْضًا أُرِيكُمْ طَرِيقًا أَفْضَلَ**" **(١كو١٢: ٣١).**

يظنُّ أن الإنســـان لا تكون له علاقة طبيعية بالروح القدس، إلا إذا تكلم بألسـنة، أو شـفى المرضـى أو أخرج الشـياطين، ناسـيًا أن كثيرين قالوا للرب: "يَا رَبُّ، يَا رَبُّ! أَلَيْسَ بِاسْـمِكَ تَنَبَّأْنَا، وَبِاسْـمِكَ أَخْرَجْنَا شَـيَاطِينَ، وَبِاسْـمِكَ صَـنَعْنَا قُوَّاتٍ كَثِيرَةً؟" فسـمعوا منه عبارة: "إِنِّي لَمْ أَعْرِفْكُمْ قَطُّ! اذْهَبُوا عَنِّي يَا فَاعِلِي الإِثْمِ!" (مت٧: ٢٢، ٢٣).

وينســـى قول الرَّب لتلاميذه عن المعجزات: "لاَ تَفْرَحُوا بِهذَا" (لو١٠: ٢٠).

وينســـى أن ثمار الروح أنفع لخلاصـــه من مواهب الروح، وأن يوحنا المعمدان أعظم من ولدته النسـاء، لم يذكر عنه الكتاب أنه كان صـاحب معجزات... كان أعظم ما فيه هو اتضـــاعه على الرغم من امتلائه من الروح القدس بل بهذا الامتلاء قال: "لَسْـــتُ أَنَا... هُوَ الَّذِي يَأْتِي بَعْدِي، الَّذِي صَـارَ قُدَّامِي، الَّذِي لَسْـتُ بِمُسْـتَحِقّ أَنْ أَحُلَّ سُـيُورَ حِذَائِهِ" (يو١: ٢٠-٢٧).

لم يحدث أن إنســـانًا رأى عجائب مثل الســـيدة العذراء، ولكنها في اتضاعها ظلت صامتة، لا تتحدث عن (اختباراتها)، كما يتحدث كثيرون عن (اختباراتهم) دون أن ينالوا شيئًا مثلها!!

التطبيق العملي للاتضاع*

أتابع معكم حديثنا عن الاتضـــاع، بحيث ندرس هذه الفضـــيلة في حياتنا العملية، التي تدخل في علاقاتنا مع الله ومع الناس ومع أنفسنا.

قلنا إن الاتضـاع هو أن يشـعر الإنسـان في أعماقه أنه خاطئ وضـعيف وغير مستحق، وأنه أقل من جميع الناس.

ولكن المهم أن يعامل نفســـه على هذا الأســـاس، ويقبل المعاملة من الناس ومن الله على أنه خاطئ وغير مستحق.

قد يقول إنسان إنه خاطئ. ولكنه لو سمع إنسانًا يصفه بأنه خاطئ، يثور ويحتج ويغضـب ويدافع. وتكون عبارة الاتضـاع التي يلفظها لسـانه، غير حقيقة قلبه من الداخل.

✞ فما هي العلامات الحقيقية للاتضاع في تطبيقه العملي؟

المتواضع الحقيقي الذي يشعر بخطيئته، يقبل كل ما يأتي عليه.

ويقول: "لو أن الله عاملني حسـب خطاياي، ما كنت أسـتحق أن أعيش".

* مقال لقداسة البابا شنوده نُشر في مجلة الكرازة، بتاريخ ٢ يونيو ١٩٧٨م

ويرى أن كل الإهانات والمتاعب التي تصـــيبه، هي أقل من اســـتحقاقه بكثير، ويقبلها بشكر.

مثال ذلك داود النبي والملك، لما شـتمه شـمعي بن جيرا بشـتائم مؤلمة، أجاب: "دَعُوهُ يَسُـــبَّ لأَنَّ الرَّبَّ قَالَ لَهُ: سُـــبَّ دَاوُدَ" (٢صـــم١٦: ١٠)، واعتبرها نتيجة طبيعية لما سبق من خطاياه.

✞ الإنسان المتواضع الشاعر بخطاياه، يتألم ويحزن إن أكرمه الناس.

يدرك أنه يأخذ ما ليس له، ويقول في داخله: "إن هؤلاء المادحين لا يعرفون حقيقتي. ولو عرفوها كنت احتار كيف أُخفي وجهي خجلًا منهم". ويبكّت نفسه، ربما كان مرائيًا يظهر بغير حقيقته.

إن كان هكذا شعوره، فبالتالي سوف لا يفتخر...

لا يتحدث عن نفسه، ولا يشرح فضائل فيه، ولا يتكلم عن ذاته بالخير. بل إن تحدث عن نفسه لا يذكر سوى خطاياه، ولا يذكرها إلاَّ في خجل. يقول على الدوام: "مَن أنا؟!".

✞ الإنسان المتضع هو دائمًا منسحق. خطيته أمامه كل حين.

إنها تذله في الداخل، وتعصر عينيه بالدموع، وتجلب له الانسحاق وتجعله يتوارى وتشعره بضعفه. لا ينسى خطاياه مهما نسيها له الله، ومهما غفرت. مثلما بكى داود على خطاياه بعد غفرانها، ومثلما ذكر بولس خطاياه، وقال: "لَسْتُ أَهْلًا لأَنْ أُدْعَى رَسُولًا" (١كو١٥: ٩).

الإنسان المتواضع الشاعر بضعفه، إذا عرضت عليه خدمة، يرى في نفسه أنه غير مستحق، وغير قادر، **وأن الأفضل له أن يجلس طول حياته في صفوف الموعوظين يطلب التوبة لنفسه.**

وبالتالي لا يمكن أن يطلب من الله مواهب وعجائب.

يقول للرب: "من أنا حتى اجترح العجائب وأشفي المرضى وأقيم الموتى. الخير لي أن أقيم نفسي من موت الخطية، وأن أطلب الشفاء من أمراضي الروحية"... ويقول لنفسه أيضًا: "أنا لست احتمل هذه المواهب بسبب كبرياء نفسي. والمواهب تليق بأحباء الله المتواضعين الذين يحتملون".

الإنسان المتواضع، صلاته تكون دائمًا مشبعة بروح الاتضاع والانسحاق.

صلاة إنسان قد لَصِقَتْ بِالتُّرَابِ نَفْسِه (مز١١٩: ٢٥)؛ وبلل فراشه

بدموعه (مز٦:٦)، يقول لله: "لاَ تَحْجُبْ وَجْهَكَ عَنِّي" (مز٢٧: ٩)، ولا تعاملني بحسب خطاياي!

إذا دخل المتواضع كنيسة، يفعل مثل العشار: يقف من بعيد، لا يجرؤ على الدخول. وقد لا يجرؤ أن يرفع نظره إلى فوق، بل يقرع صدره ويقول: ".. اللّهُمَّ ارْحَمْنِي، أَنَا الْخَاطِئُ" (لو١٨: ١٣). وقد يقف خلف عامود، لا يرى أحدًا، ولا يراه أحد.

إنه يطلب صلاة كل إنسان لأجله، ويطلب شفاعة كل قديس لأجله، لكي يُحسب مستحقًا للدخول إلى بيت الرَّبِ. وإن تقدم للتناول من الأسرار الإلهية، يتقدم بخشية كمن هو واقفٌ أمام لهيب نار.

✞ المتواضع يشعر باستمرار أنه ناقص ومتهاون، وأنه لم يصل بعد إلى ما ينبغي عليه فعله.

بولس الرسول كان يقول: "لَسْتُ أَحْسِبُ نَفْسِي أَنِّي قَدْ أَدْرَكْتُ" أو نلت شيئًا (في٣:١٣). بولس الذي صعد إلى السماء الثالثة، وتعب أكثر من جميع الرسل، وخاف الله عليه من كثرة الاستعلانات، يقول: إنه يسعى، لعله يدرك (في٣: ١٢).

وأرسانيوس العظيم، الذي كان يقضي الليل كله في الصلاة، والذي كان

رجل وحدة وصـمت أكثر من الجميع، والذي تسـاقطت رموشـه من كثرة البكاء، الذي كان القديسـون يطلبون بركته، وأتاه البابا ثاؤفيلس يطلب منه كلمة منفعة... أرسـانيوس هذا يقول: "**هبني يا رب أن أبدأ**". إنه يحسـب نفسه لم يبدأ بعد...

إن المتواضـــع ينظر إلى المســـتويات العليا وإلى الكمال المطلوب منه، فيشعر دائمًا أنه في الموازين إلى فوق.

يشـعر أن الطريق ما يزال طويلًا جدًا أمامه. ومهما نفذ كل الوصـايا يرى أنه مجرد عبد بطّال...

إن كـانـت المحبـة هي أول ثمرة من ثمـار الروح الكثيرة (غلا٥:٢٢). والمحبة برنامج طويل يذكره بولس في (١كو١٣). وللآن لم يدرك أعماق هذه المحبة، ولم يُكمل مســتلزماتها، فماذا يقول إذًا عن باقي ثمار الروح التي ليس له منها شـيء؟! **يقول ذلك بثقة من أعماق قلبه، وليس مجرد اِدعاء للتواضع.**

الإنسان المتواضـع كثير الشكر، يشكر على كل شـيء. لأنه يوقن أنه لا يسـتحق شـيئًا من العطايا التي نالها. يقول: "أنا يا رب لم أفعل شـيئًا أسـتحق عليه عطاياك". لا يقول مثل بعض المتكبرين أطالب الله بحقوقي

في البنوة، وحقوقي في الميراث. بل يقول لله: "وَلَسْتُ مُسْتَحِقًّا بَعْدُ أَنْ أُدْعَى لَكَ ابْنًا. اِجْعَلْنِي كَأَحَدِ أَجْرَاكَ" (لو١٥: ١٩).

أنا لم أصل إلى مرتبة (العبيد البطالين) الذين فعلوا كل ما أُمروا به!

المتكبر يطالب بحقوق، لأنه ينسى ديونه بسبب خطاياه، وينسى حقوق الله تجاهه... وإن كان يقول: "حقوقي في دم المسيح"؛ فهو ينسى قول بولس الرسول عن الذي يخطئ باختياره بعد معرفة الحق، وأية عقوبة يستحقها (عب١٠:٢٦-٢٩).

✞ **لذلك هناك كبرياء يمكن نسميها (كبرياء العقيدة).**

كبرياء من لا يحترمون الكهنوت بتفسير خاطئ لعبارة: "لاَ تُدْعَوْا سَيِّدِي... وَلاَ تَدْعُوا لَكُمْ أَبًا عَلَى الأَرْضِ" (مت٢٣: ٨، ٩). **وكبرياء من لا يحترمون القديسين**، ولا يطلبون شفاعتهم ظانين أنهم مثلهم! **وكبرياء من يقولون كلّنا ملوك وكهنة**، بمعنى أنه لا فرق بينهم وبين الآباء الكهنة!

كبرياء من لا يعترفون بقوانين كنسية ولا بتقاليد ولا بأوامر الآباء، وإنما يعترفون فقط بمجرد فهمهم الخاص للإنجيل!

كبرياء من يقولون عن العذراء إنها تشبه قشرة البيضة، خرج منها

الكتكوت، فأصبحت القشرة لا تساوي شيئًا..!

كبرياء الذين يُصلّون وهم جلوس! بينما الله تقف أمامه الملائكة ورؤساء الملائكة. والشاروبيم والسيرافيم يسجدون في خشوع، بجناحين يغطون وجوههم، وبجناحين يغطون أرجلهم من هيبة مجده. "يَخِرُّ الأَرْبَعَةُ وَالْعِشْرُونَ شَيْخًا قُدَّامَ الْجَالِسِ عَلَى الْعَرْشِ، وَيَسْجُدُونَ لِلْحَيِّ إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ، وَيَطْرَحُونَ أَكَالِيلَهُمْ أَمَامَ الْعَرْشِ" (رؤ٤: ١٠).

كبرياء الذين لا يخاطبون الرَّب إلاَّ بعبارة يسوع: "يسوع أحبني. يسوع أعطاني. أحبك يا يسوع"، وينسون قولنا عند قراءة الإنجيل: "ربنا وإلهنا ومخلصنا كلنا، ربنا يسوع المسيح الذي له المجد الدائم إلى الأبد آمين". هنا الاتضاع والخشوع في العبادة.

هناك أيضًا كبرياء الذين يلحّون على الله في أن يتكلموا بألسنة ويعلنون على الناس أن هذه هي علامة الملء... ومن لا يتكلمون بألسنة، يدّعون عليهم أنهم لم يختبروا بعد.

كبرياء من ينادي شخصًا آخر، ويقول له: "تعال لكي أسلمك تدريب الملء"!! ويقف أمام الناس كمانح للألسنة والمواهب!!

كبرياء من يقول إني تبررت وتقدســـت وتجددت ونلت الملء، وأنا واثق أني ســأنال الملكوت! كأنه ليســت هناك حروب، أو كأنه أقوى من الذين سقطوا!!

ما أسهل أن تدخل الكبرياء في التعليم اللاهوتي، وتلبس ثياب الحملان، وتعلم، ولا مانع من أن تدعو إلى الاتضاع!!

وينســـى هؤلاء قول أبي الآباء والأنبياء إبراهيم الذي قال: "شَـــرَعْتُ أُكَلِّمُ الْمَوْلَى وَأَنَا تُرَابٌ وَرَمَادٌ" (تك١٨: ٢٧). إن كان إبراهيم ترابًا، فأنت أيها المسكين مَن تكون؟!

إن الدالة مع الله لا تمنع الاحترام ولا تمنع المخافة فأنت مهما كنت لن تصـل إلى الدالة التي بين الله وأبينا إبراهيم. إنها كبرياء، أن يفقد الإنسـان مخافته أمام الكنيسة وأمام القديسين وأمام الله: ويظن أنه ليس محتاجًا إلى أحد، لكي يكون له علاقة منفردة مع الله من غير "وكلاء السرائر الإلهية"!

✞ أيضًا الإنسان المتضع وديع وسهل التفاهم وقابل للتعلّم.

أما المتكبر، فهو كثير النقاش، كثير الجدال، لا يقبل التعليم بســـهولة، ولا يقبل النصح والإرشاد. بل يعتد برأيه.

ينســى أن المؤمنين كانوا في الكنيســة الأولى يُدعون "تلاميذ"، وكانت لهم

حياة التلمذة، وينسى أن الاستماع أفضل من التكلم.

✞ والمتكبر أيضًا في ثقته بذاته، كثيرًا ما يدين غيره...

هو ساخطٌ على كل شيء. الكلُّ ناقصون في نظره. نقده لاذع، ولا يسلم أحد من نقده. وقد لا يدين الأفراد فقط، ولا الرؤساء فقط وإنما قد يدين الكنيسة كلها!! يدين الملايين! انظروا أية خطية هذه! بكل سهولة يقول البعض إن: الكنيسة نائمة، وأنه الوحيد المستيقظ.

✞🕊✞

الحديث عن الاختبارات*

نتابع حديثنا عن التواضع، فنتناول صفة من صفاته، وهي عدم الحديث عن النفس، وبخاصة النقط البيضاء فيها. ولتكن تأملاتنا في الحديث عن الاختبارات الشخصية.

الحديث عن الاختبارات

الشخص المتواضع لا يفكر في ذاته كثيرًا، ولا يمتدحها أمام الناس، ولا يركز فيها اهتمامه، مستمعًا إلى قول الرَّب: "مَنْ أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ وَرَائِي فَلْيُنْكِرْ نَفْسَهُ" (مر٨: ٣٤). وإنكار الذات لا يتفق والحديث عنها.

الإنسان المتواضع ليس فقط لا يمدح ذاته، بل لا يقبل المديح من الآخرين، ظانًا أنه قد ظهر أمامهم بما ليس فيه...

من هنا، أود أن أناقش معكم موضوع (الحديث عن الاختبارات)، كأن يقف شخص ليحكي للناس اختباراته الروحية. أو يطلب منه أحد قادة الاجتماعات هذا الأمر، فيفعل...

* مقال لقداسة البابا شنوده نُشر في مجلة الكرازة، بتاريخ ٩ يونيو ١٩٧٨م

ألاحظ في هذا الموضوع لونين من الخطأ:

الخطأ الأول هو سرد أخطاء الماضي مع بشاعتها، بلا حياء...

يقف شـــخص ويتكلم بكل جرأة، وبلا خجل، وبصـــوت عال، ويقول: "أنا كنت أشـــرب الخمر، وأذهب إلى كباريهات، وألعب القمار، وأصـــادق النســـاء..". والذي يســـمعه يخجل من ســـماع حديثه، أما هو فيتكلم بلا خجل، كأن هذه الخطايا شيء عادي..!

انظروا إلى العشـار الذي تذكر خطاياه أمام الله، كيف أنه وقف من بعيد، ولم يجرؤ على النظر إلى فوق، وقرع صـــــدره، وطلـب الرحمـة، في استحياء، دون أن يسرد تفاصيل خطاياه.

فلنستمع إلى **صلاة عزرا** لنرى هذا الاستحياء في ذكر الخطايا:

لقد جثا على ركبتيه، في ثيابه الممزقة، واعترف للرب قائلًا: "إِنِّي أَخْجَلُ وَأَخْزَى مِنْ أَنْ أَرْفَعَ يَـا إِلهِي وَجْهِي نَحْوَكَ، لأَنَّ ذُنُوبَنَـا قَـدْ كَثُرَتْ فَوْقَ رُؤُوسِنَا" (عز٩: ٦). **وتحدث عزرا عن خزي الوجوه.**

كما صـلى دانيال أيضًـا: "لَكَ يَا سَيِّدُ الْبِرُّ، أَمَّا لَنَا فَخِزْيُ الْوُجُوهِ. يَا سَيِّدُ، لَنَا خِزْيُ الْوُجُوهِ، لِمُلُوكِنَا، لِرُؤَسَائِنَا وَلآبَائِنَا لأَنَّنَا أَخْطَأْنَا إِلَيْكَ" (دا٩:٦-٨). حقًا إن المتواضـــع الشـــاعر بخطاياه، يقول مع المرنم في المزمور: "الْيَوْمَ

كُلَّهُ خَجَلِي أَمَامِي، وَخِزْيُ وَجْهِي قَدْ غَطَّانِي" (مز٤٤: ١٥).

أما أن يقف إنسان على منبر، ويشرح بشاعاته أمام الكل، بلا حياء، على اعتبار أنه تغير، فهذا أمر غريب!

إن الابن الضال، حينما شعر بسوء حالته، وبأنه أقل من الأجراء، قال لأبيه في خجل: "أَخْطَأْتُ إِلَى السَّمَاءِ وَقُدَّامَكَ، وَلَسْتُ مُسْتَحِقًّا بَعْدُ أَنْ أُدْعَى لَكَ ابْنًا" (لو١٥: ٢١). ولم يقف ليفتخر بالتغيير الذي حدث في حياته، ولم يتحدث عن النعمة التي ملأت قلبه ونقلته من الكورة البعيدة إلى بيت الآب.

والعجيب أيضًا أن هؤلاء الذين يعترفون ببشاعة حياتهم القديمة، بلا خجل، يتحدثون أيضًا عن البر الجديد بلا خجل!!

أنا (كنت وكنت، وصرت، وصرت)! والحديث عن الحالة الجديدة المشرقة، يغطي الماضي، فلا يحسه المتحدث عن اختباراته، ولا يحسه السامع أيضًا. ولا تأخذ الخطية حقها من الانسحاق.

والأعجب من هذا كله، أن يقدم هذا الخاطئ نفسه كقدوة يتشجع بها الآخرون. ويتحول في لمح البصر من خاطئ إلى قدوة وإلى واعظ يقف على المنبر، في غير استحقاق، يبشر ويخدم الكلمة!

ويحاول أن يغطي كل هذا، بأن المسيح قد محا خطاياه، ناسيًا أنه كان ينبغي أن ينسحق بالأكثر، لأن خطاياه صارت قطرات في كأس المسيح، وصارت أشواكًا تدمي جبينه.

✞ نصائح لهؤلاء

❖ إن كانت خطاياك قد غفرت، فإن ثمن هذه المغفرة ينبغي أن يدمي قلبك، ويخزي وجهك، لأن الله البار قد حُسب خطية بسببك، إذ حمل خطاياك، ووضع عليه إثمك.

❖ ثم أنه إن كانت لك توبة، أو كان الروح قد عمل فيك للتوبة، وقد خلّصك الرَّب من خطاياك القديمة، ووهبك حياةً نقية بالتوبة، فلا تشرح هذه النقاوة الجديدة، ولتكن سرًا بينك وبين الله، لئلا تفقدها بهذا الافتخار...

❖ **لا تقل كنت خاطئًا وصرت بارًا!** بل قل في اتضاعٍ: "أنا لا أزال خاطئًا"، كما قال بولس الرسول: "الْخُطَاةَ الَّذِينَ أَوَّلُهُمْ أَنَا" (١تي١: ١٥)، وكما قال يعقوب الرسول: "فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ نَعْثُرُ جَمِيعُنَا.." (يع٣: ٢).

وإن سألك أحد هل تبت؟ ومتى؟ قل له: أنا لم أتب بعد. صلّ لأجلي لأتوب. بل قل: "تَوِّبْنِي، يا رب فَأَتُوبَ" (إر ٣١: ١٨).

❖ **إذا ساعدك الله على التوبة، فلا تبوق قدامك بالبوق** كما يفعل

المراؤون (مت٦)، بل تذكر قول الرب: "فَأَبُوكَ الَّذِي يَرَى فِي الْخَفَاءِ هُوَ يُجَازِيكَ عَلاَنِيَةً" (مت٦:٦). واحذر من أنك بحديثك عن نفسك، تكون قد استوفيت أجرك.

❖ **ولا تضع نفسك قدوة ومعلمًا.** فهناك قدوات في سير القديسين أما أنت ففي زمن التوبة، يليق بك الانسحاق لا التعليم.

قل لنفسك: "مَن أنا حتى أكون قدوة؟ وما هي خبراتي حتى أحكيها للناس، وأنا شخص مبتدئ حديث العهد بمعرفة الله؟! الأولى بي أن أتعلم، لا أن أحكي اختبارات".

ألعلك وصلت إلى درجة موسى النبي الذي قضى أربعين يومًا مع الله على الجبل، ومع ذلك لم يقص علينا اختباراته الروحية في الأربعين يومًا، فهل تحكي أنت؟!

ألعلك مثل السواح الذين قضوا عشرات السنوات مع الله، في الخلوة والتأمل، ولم يقصوا عنها شيئًا. بل إن قصص آباء البرية القديسين لم نعرفها عنهم، وإنما من كتابات بعض السائحين مثل: بلاديوس وروفينوس وكاسيان، الذين ذكروا شيئًا من أخبارهم.

مَن مِن نساء اليوم قد وصلت إلى اختبارات السيدة العذراء التي عاش

المسيح في حضنها وفي بيتها، ورأت معجزاته...

ومع ذلك فإن العذراء لم تتكلم عن اختباراتها، بل صـــمتت وكانت تحفظ كل هذه الأمور متأملة بها في قلبها. كما يقول الكتاب: "وَأَمَّا مَرْيَمُ فَكَانَتْ تَحْفَظُ جَمِيعَ هذَا الْكَلاَمِ مُتَفَكِّرَةً بِهِ فِي قَلْبِهَا" (لو٢: ١٩).

عجيب أن تصـــمت العذراء فلا تتكلم عن اختباراتها، وتقف أية امرأة في أيامنا، لتحكي كيف نالت التبرير والتقديس والتجديد والملء والفيض، وسائر هذه العبارات التي لا تُدرك معناها...

وعجيب أن يصـــمت أخنوخ الذي "سَـــارَ أَخْنُوخُ مَعَ اللهِ" (تك٥: ٢٤)؛ وإبراهيم الذي أخرجه الله من أهله ووطنه ليعيش معه في الجبل الذي أراه إياه. يصـــمت هؤلاء ليتكلم بعض المبتدئين في التوبة! يوقفونهم على المنابر، ويقولون لكل منهم "اشـرح لنا قصـة اختبارك"! ويحكي كل منهم كيف نال البرّ الجديد، وكيف عملت النعمة فيه وطهّرته!

إن كنت وأنت على الشـــاطئ تعمل هكذا، فماذا تفعل لو دخلت إلى الأعماق؟! لذلك لا يأتمنك الرب على أعماقه، لئلا تملأ الدنيا كلامًا. إنما يأتمن المتواضـعين الصـامتين. أي بر يا أخي قد نلته؟ إنك ما تزال في حرب كل يوم تسقط فيها وتقوم، وما تزال إرادتك موضع اختبار...

ولن تنل إكليل البر، إلا بعد أن تكمل السعي، وتخلع الجسد، ويهبه لك الديان العادل، في ذلك اليوم، كما شرح القديس بولس الرسول: "وَأَخِيرًا قَدْ وُضِعَ لِي إِكْلِيلُ الْبِرِّ، الَّذِي يَهَبُهُ لِي فِي ذلِكَ الْيَوْمِ، الرَّبُّ الدَّيَّانُ الْعَادِلُ، وَلَيْسَ لِي فَقَطْ، بَلْ لِجَمِيعِ الَّذِينَ يُحِبُّونَ ظُهُورَهُ أَيْضًا" (٢تي٤: ٨).

ولماذا تخبر الناس عن علاقتك مع الله؟ فلتكن حياتك مع الله سرًا، قدس أقداس لا تطأها آذان الناس...

حياتك مع الله هي "جَنَّةٌ مُغْلَقَةٌ... يَنْبُوعٌ مَخْتُومٌ" (نش٤: ١٢)؛ فلا تجعلها مدوسة بأقدام الكثيرين، لئلا تتلفها الثعالب الصغار...

لا تعلن عن نفسك، لا تعلن عن توبتك، ولا عن نقاوتك، ولا تُدخل الناس في علاقتك مع الله، ولا تغتر بفترات روحية مرت عليك، وتحدث الناس عنها، لئلا تطلبها فيما بعد فلا تجدها... بل على قدر طاقتك اِخفِ فضائلك.

إن الخبرات التي تُختم بالصمت، يعلنها الله في السماء والتي تعلنها أنت على الأرض، يخطفها شيطان المجد الباطل، ولا تعود...

إن كنت تحكي عن اليوم، فأنت لا تدري ما يخبؤه لك الغد. استمع إلى قول الرسول: "إِذًا مَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ قَائِمٌ، فَلْيَنْظُرْ أَنْ لاَ يَسْقُطَ"(١كو١٠: ١٢).

لذلك استتر وراء الاتضاع والإخفاء فيحفظانك من السقوط.

إن بولس الرسول، لما أثار الأعداء شكوكًا حول إرساليته، كادت تعطل الكلمة، وقالوا إنه ليس رسولًا، إنما تلميذ للرسل، تحتاج رسالته مراجعة منهم. واضطر بولس أن يتكلم عن نفسه، قال: "قَدْ صِرْتُ غَبِيًّا وَأَنَا أَفْتَخِرُ. أَنْتُمْ أَلْزَمْتُمُونِي" (٢كو١٢: ١١). احتملوا غباوتي، ولم يتحدث عن خبراته الروحية إنما عن ضعفاته...

إن كان بولس الرسول قد قال إنهم ألزموه أن يكون غبيًا ويتحدث عن نفسه، فلماذا تسلك أنت في الغباء بإرادتك؟! يا ليتك تتذكر عبارة "خَبَأْتُ كَلاَمَكَ فِي قَلْبِي لِكَيْلاَ أُخْطِئَ إِلَيْكَ" (مز١١٩: ١١)، وتخبئ أيضًا كل عمل إلهي يرفعك إليه.

هو يعلن عن عمله فيك، وأنت لا تعلن. هو يجعلك نورًا للناس، ولكنك لا تقول عن نفسك أنك صرت نورًا.

حياة القديسين مع الله كانت كلها في الخفاء. وبعضهم كانوا يتظاهرون بالخبل والجهل، حتى لا تظهر حياتهم الفاضلة للناس... وقديسون آخرون كانت تُجرى معجزات على أيديهم فينسبونها لغيرهم حتى لا يظهروا، كما في قصة شفاء زهرة ابنة محمد على.

جاءوا إلى البابا، لكي يصـــلي لأجلها. فأجاب إنني لا أملك هذه الموهبة، ولكن اذهبوا إلى الأنبا صرابامون أبو طرحة. فلما ذهبوا إليه طلب صليب البابا. لكي ببركته يخرج الروح النجس من الفتاة. وشـــفيت الفتاة. والبابا بطرس الجاولي يُرجع شـــفاءها إلى صـــلاة الأنبا صـــرابامون، والأنبا صرابامون يقول إنها بركة صليب البابا...

وهكذا حينما كان القديس بيســاريون يصــلي لشــفاء مريض، كان يقول: "بصـــلاة أبي القديس الأنبا أنطونيوس". كان يقول للروح النجس: "أبي القديس أنطونيوس يأمرك أن تخرج"، وينسب الأمر لغيره...

هؤلاء كانت معجزاتهم تتكلم، فيهربون منها، بعكس المتكلمين عن خبراتهم ولذلك ذهلت جدًا حينما فسر أحدهم قول السيد المسيح لتلاميذه: "وَتَكُونُونَ لِي شُـــهُودًا" (أع١: ٨). فبدلًا من أن يقول إن معنى الآية: أن نشـــهد للمسيح في موته عنا وفدائه للبشرية وقيامته كاسرًا شوكة الموت، قال: "ينبغي أن نشهد لعمل الله فينا، وكيف غيّرنا!" أي أن يتحدث الإنسان عن اختباراته في التغيير! ناســـيًا قول الرب: "تبشـــرون بموتي، وتعترفون بقيامتي"، هكذا كانت شهادة الرسل...

✞🕊✞

من التواضع: احترام الآخرين*

أتابع معكم حديثنا عن الاتضاع. فنتأمل معًا صفة من صفات المتضعين، وهي احترام الآخرين.

من التواضع: احترام الآخرين

المتواضع يحترم غيره، صغيرًا كان أم كبيرًا. أما المتكبر، فإنه يتعالى على مَن هو أصغر منه، ولا يحترم الكبار.

السيد المسيح في كل عظمته، أعطانا مثالًا في احترام الناس.

ما أعجبه وهو يقول ليوحنا المعمدان: "اسْمَحِ الآنَ، لأَنَّهُ هكَذَا يَلِيقُ بِنَا أَنْ نُكَمِّلَ كُلَّ بِرّ" (مت٣: ١٥)، (إنه احترام للناس، وللشريعة).

وفي تواضعه، خضع للناموس بكل تفاصيله. إننا لنذهل، إذ نسمعه بعد تطهيره للأبرص، يقول له: "اذْهَبْ أَرِ نَفْسَكَ لِلْكَاهِنِ" (مت٨: ٤). يا سيدي ألست أنت هو الكاهن الأعظم؟ ما حاجتي إلى كاهن؟! لا يا بني، يليق بنا أن نكمل كل بر، ونعطي كل ذي حق حقه، نعطي للكاهن

* مقال لقداسة البابا شنوده نُشر في مجلة الكرازة، بتاريخ ١٦ يونيو ١٩٧٨م

وللشريعة احترامهما.

وبالمثل لما اختار شاول الطرسوسي، أرسله إلى حنانيا، ولما قرر قبول كرنيليوس، طلب إليه أن يستدعي سمعان بطرس. ولما دعا برنابا وشاول للخدمة، طلب من الرسل أن يفرزوهما.

✝ عجيب أن الرب في تواضعه، لا يتخطى وكلاءه.

لا نقول إنه يحترم عبيده، فربما هذا التعبير غير مقبول لاهوتيًا. وإنما نقول إنه في معاملته لهم، يحتفظ لهم بكرامتهم "لاَ أَعُودُ أُسَمِّيكُمْ عَبِيدًا... لكِنِّي قَدْ سَمَّيْتُكُمْ أَحِبَّاءَ" (يو١٥:١٥).

وهكذا لا يستنكف من أن يدعوهم إخوته، ويصير بكرًا وسط إخوة كثيرين. ويقول للمجدلية: "اذْهَبِي إِلَى إِخْوَتِي وَقُولِي لَهُمْ" (يو٢٠: ١٧). وفي اتضاعه يغسل أرجل تلاميذه. ويقول ليهوذا الخائن: "يَا صَاحِبُ، لِمَاذَا جِئْتَ؟" (مت٢٦: ٥٠)، "يا صاحب" وليس "يا خائن"!

إنه لا يجرح شعور أحد، لا الخائن، ولا المرأة الخاطئة.

لم يوبخ التي ضُبطت في ذات الفعل، بل قال لها: "وَلاَ أَنَا أَدِينُكِ. اذْهَبِي وَلاَ تُخْطِئِي أَيْضًا" (يو٨: ١١). وقال للسامرية: "لأَنَّهُ كَانَ لَكِ خَمْسَةُ أَزْوَاجٍ" (يو٤: ١٨)، فاستعمل كلمة (أزواج) لكيلا يجرح شعورها، ولا

يخدش حياءها. وأحاط هذا الاعتراف بكلمتين رقيقتين "حَسَنًا قُلْتِ... هذَا قُلْتِ بِالصِّدْقِ" (يو٤: ١٧، ١٨).

إنه يعطينا درسًا في حفظ كرامة الناس، مهما بدا أنهم أقل كثيرًا سواء في المركز، أو الدرجة الروحية...

واتضاعه يظهر أيضًا في احترامه لأمّه، وطاعته لها، كما في مثال تحويل الماء إلى خمر، مع أنه كان يرى أن سَاعَتِه لَمْ تَأْتِ بَعْدُ (يو٢: ٤)، ومع ذلك نفّذ لها رغبتها.

✞ وعلى هذا النهج سار القديسون في احترام الكبار...

ليس الكبار في القرابة والمركز فقط، وإنما في السن أيضًا:

تأملوا بولس الرسول يقول لتلميذه تيموثاوس الأسقف: "لاَ تَزْجُرْ شَيْخًا بَلْ عِظْهُ كَأَبٍ، وَالأَحْدَاثَ كَإِخْوَةٍ، وَالْعَجَائِزَ كَأُمَّهَاتٍ، وَالْحَدَثَاتِ كَأَخَوَاتٍ" (١تي٥: ١-٢)؛ مع أن الكل أبناؤه من الناحية الروحية والرعوية، ولكنه يدعوهم آباء وأمهات وإخوة. ونفس بولس الرسول يقول: "سَلِّمُوا عَلَى رُوفُسَ الْمُخْتَارِ... وَعَلَى أُمِّهِ أُمِّي" (رو١٦: ١٣).

واحترام الشيوخ، نجده واضحًا جدًا في بستان الرهبان...

وفي قصة أيوب الصديق، نجد أصحاب أيوب الثلاثة قد ناقشوه ثمانية

وعشـرين إصـحاحًا، وكان هناك رابع اسـمه أليهو ظلَّ صـامتًا احترامًا لسنهم. وأخيرًا قال لهم: "أَنَا صَغِيرٌ فِي الأَيَّامِ وَأَنْتُمْ شُيُوخٌ، لأَجْلِ ذلِكَ خِفْتُ وَخَشِيتُ أَنْ أُبْدِيَ لَكُمْ رَأْيِي. قُلْتُ الأَيَّامُ تَتَكَلَّمُ، وَكَثْرَةُ السِّنِينَ تُظْهِرُ حِكْمَةً" (أي٣٢: ٦، ٧).

يقول الكتاب: "مِنْ أَمَامِ الأَشْيَبِ تَقُومُ وَتَحْتَرِمُ وَجْهَ الشَّيْخِ" (لا ١٩: ٣٢). وفي أدب بستان الرهبان "إن جلست وسط الشيوخ فاصمت. وإن سألوك عن شيء، فقل لا أعرف".

✞ ونفس الوضع (احترام الكبار) نجده في أخلاقنا الريفية.

يقَبلون يَد الأب والجد، ويحترمون العم كالأب تمامًا، ويكلمون الكبار بتوقير، ولا يجلسـون أمام كبير واقف، ويترجلون عن دوابهم أمام من هو أكبر منهم. إنها روحيات دخلت في أدب المجتمع.

✞ كذلك نفس الاحترام في الأدب الكنسي... في الكلام وفي التصرف.

إن طلب مطران الحِل، يقولون له: "من فمك يا سـيدنا.."، ولا يبدأ كاهن الصـلاة، دون أن يأذن له الأسـقف أولًا. ولا يلبس رجال الإكليروس ملابسهم الكهنوتية – في وجود الأسقف – إلاَّ إن رشمها لهم أولًا. إنه احترام الأبوة والكهنوت.

إنَّ احترام رجال الكهنوت. هو احترام لله نفسه، لأنهم وكلاؤه وعنهم قال: مَن يكرمكم يكرمني، ومن يرذلكم يرذلني.

أما التفكير البروتستانتي، فليس فيه احترام الآباء، لأنه ليس فيه اتضاع... وفي خطأ وكبرياء، يحاول أن يفسر عبارة: "وَلاَ تَدْعُوا لَكُمْ أَبًا عَلَى الأَرْضِ"... ولا سيدًا، ولا معلمًا (مت٢٣)! ويقول أيضًا في كبرياء إن كل الناس ملوك وكهنة، بلا فارق!!

وعدم احترام الآباء والكهنوت، جرّ إلى عدم احترام القديسين!

ما أعجب قول الأخوة البلاميس عن أبي الآباء إبراهيم (الأخ إبراهيم) وعن الرسولين العظيمين بولس وبطرس (الأخ بولس) و(الأخ بطرس). بل يقولون أيضًا (الأخ يسوع). أو (يسوع) فقط!!

أما الكنيسة فقد عودتنا أن نقول: "**القديس العظيم بولس الرسول**، بركاته مع جميعنا آمين". وعودتنا أن نقول قبل الإنجيل: "**ربنا وإلهنا ومخلصنا وملكنا كلنا، يسوع المسيح**، الذي له المجد الدائم إلى الأبد آمين"... نعم، هكذا يكون الاحترام والتوقير.

احترامنا للرَّب يدعونا إلى السجود أمامه، وإلى الصلاة ونحن وقوف. وليس كما يفعل البعض، يصلون وهم جالسون!

واحترامنا للرب يدعونا إلى احترام كتابه: نقرأه في الكنيسة ونحن وقوف، ونسبق قراءته بالبخور، وبصلاة أن يجعلنا مستحقين للسمع والعمل. وبنفس الوضع نحترم الكنيسة، ونحترم القديسين ونتشفع بهم، ونعيد لهم، ونبني الكنائس على أسمائهم، ونطلب بركتهم، نوقد الشموع أمام أيقوناتهم. إنهم آباؤنا وسادتنا، وسيظلون كذلك.

نقول بكل احترام: "سيدتنا كلنا والدة الإله الطاهرة القديسة مريم". ونقول سادتنا الرسل. ونستخدم لقب (مار) أي (سيد)، فنقول مار جرجس، ومار مينا، ومار إفرام، ومارت مريم...

وبنفس الوضع نحترم الآباء الكهنة والآباء الرهبان. ونقول للراهب أبونا فلان، وللراهبة أمنا فلانة، بلون من الاحترام لتفرغهم لعبادة الله وخدمته، حتى لو كانوا حديثين في السيامة.

إن الكنيسة الأرثوذكسية مشهورة باتضاعها، وباحترامها للغير، واحترامها لكل ما هو مقدس، ومخصص لله...

وبنفس الأسلوب نحترم القوانين الكنسية، والتقاليد، وأقوال الآباء، وقرارات المجامع المقدسة، ونحترم كلام آبائنا، ونطلب بركتهم.

أما الطوائف الأخرى، فليس لها احترام القوانين هذا، ولا احترام أقوال

الآباء، ولا احترام الرئاسات الكنسية. لذلك فكل واحد يفسر كما يشاء، ولا يخضع لأحد. وكانت النتيجة أن تكونت عشرات بل مئات المذاهب، بلا ضابط...

إن البنوة والأبوة في كنيستنا يلفهما الاتضاع، ومشاعر الاحترام. الابن يحترم الأب، والأب يحفظ كرامة ابنه، في اتضاع.

خذوا مثالًا لهذا الأمر، ما قد تعلمناه في مثل (الابن الضال) سواء من جهة الابن في احترامه لأبيه، أو الأب في اتضاعه...

الابن يأتي ليقول لأبيه في احترام "أَخْطَأْتُ إِلَى السَّمَاءِ وَقُدَّامَكَ، وَلَسْتُ مُسْتَحِقًّا بَعْدُ أَنْ أُدْعَى لَكَ ابْنًا"؛ والأب في حبٍ وفي حرصٍ على كرامة ابنه، يغمره بعطف لا يسمح له بأن يقول العبارة الأخيرة: "اِجْعَلْنِي كَأَحَدِ أَجْرَاكَ" (لو١٥: ١٨-١٩). وبنفس الاتضاع يتكلم الأب مع ابنه الأكبر الغاضب، ويشرح له ويقنعه، دون أن يوبخه على أسلوبه الشديد وسوء معاملته لأخيه...

التوبيخ وروح الاتضاع

وهذا يجعلنا أيضًا نبحث موضوع التوبيخ، ومدى تمشّيه مع روح الاتضاع، وإلى أي درجة يمكن للإنسان أن يوبخ...

كثيرون يضعون أمامهم قول بولس الرسول للأسقف تيموثاوس: "وَبِّخِ، انْتَهِرْ، عِظْ" (٢تي٤: ٢) كما لو كان لهم سلطان بولس الرسول، أو سلطان تلميذه الأسقف. وقد يُوبّخون في شدة وفي قسوة، وفي غير احترام للناس، ويظنون هذه فضيلة... وينسون كيف كان القديس بولس – الذي قال هذه العبارة – يوبخ وينتهر.

إنه يقول: "ثَلاَثَ سِنِينَ... لَمْ أَفْتُرْ عَنْ أَنْ أُنْذِرَ بِدُمُوعٍ كُلَّ وَاحِدٍ" (أع٢٠: ٣١). ويقول أيضًا: "أَطْلُبُ إِلَيْكُمْ بِوَدَاعَةِ الْمَسِيحِ وَحِلْمِهِ، أَنَا نَفْسِي بُولُسُ الَّذِي فِي الْحَضْرَةِ ذَلِيلٌ بَيْنَكُمْ، وَأَمَّا فِي الْغَيْبَةِ فَمُتَجَاسِرٌ عَلَيْكُمْ" (٢كو١٠: ١).

لاحظوا أنه (ينذر بدموع)، "فِي الْحَضْرَةِ ذَلِيلٌ"، لذلك يتشجع بالكتابة، ويحسب نفسه "في الغيبة متجاسرًا عليهم"...

هذا هو أسلوب الشخص المتواضع، حينما يوبخ، لا بروح التعالي، ولا بقسوة الأسلوب، ولا بالصوت العالي المتسلط. وإنما بأسلوب الذي يحس بالخشبة في عينه، وهو يخرج القذى من عين أخيه...

إنه أسلوب الذي يطلب حق الله من نفسه أولًا... قبل أن يطلب حق الله من الآخرين. فيوبخ في "وَدَاعَةِ الْمَسِيحِ وَحِلْمِهِ". تُرى ماذا كانت وداعة

المسيح؟

عجيب لهؤلاء الذين لا يرون السيد المسيح، إلا ممسكًا بالسوط، ولا يسمعونه إلا في عبارة: "وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ الْمُرَاؤُونَ" (مت٢٣: ١٣)، كما لو كانت حياة المسيح هي هذه فقط!!

إن السيد المسيح عامل الكتبة والفريسيين بكل لطف وبكل احتمال، دون أن يرد عليهم، بل كان يزورهم، وكان بكل وداعة وحلم يحاول إقناعهم. أما هذا التوبيخ فكان في الأسبوع الأخير بالذات، حينما أراد أن يمهد لتغيير القيادات قبل صلبه، حتى لا تسيطر على الكنيسة الجديدة التي سيؤسسها بدمه...

لذلك كشف رياءهم في الأسبوع الأخير، بعد طول صبر، وليس هم فقط، بل وأيضًا الصدوقيين والناموسيين والكهنة. لأنه كان بصدد تخليص الكنيسة الجديدة من القيادات القديمة، حتى لا تستمر هذه القيادات في إتلافها للعمل الروحي...

فهل أنت في نفس موقف المسيح؟ وهل لك سلطانه؟ وهل لك وداعته وحلمه؟ أم إنك توبخ في غير اتضاع؟

الدفاع عن النفس*

نتابع حديثنا عن الاتضاع. ونركز في نقطة واحدة تتعلق بالاتضاع، وهي عدم الدفاع عن النفس. متى يكون الدفاع عن النفس ضد الاتضاع؟ وما هي الخطايا التي يقود إليها؟

الإنسان المتضع

الإنسان المتضع لا يدافع عن النفس، بل هو يدين نفسه باستمرار، وسهل عليه أن يقول إنه مخطئ...

أما المتكبر، فهو على الدوام يبرر نفسه. إنه بار في عيني نفسه، ويريد أن يكون بارًا في أعين الآخرين...

الإنسان المتواضع يقف أمام الله كمريض يحتاج إلى علاج، لذلك يعرض ضعفاته على الله، ليمنحه قوة على علاجها، ويطلب من الناس صلوات تضاف إلى صلواته، ليرحمه الله... أما المتكبر فهو من الأصحاء الذين لا يحتاجون إلى طبيب! (مت٩: ١٢).

* مقال لقداسة البابا شنوده نُشر في مجلة الكرازة، بتاريخ ٢٣ يونيو ١٩٧٨م

المتواضع يدافع عنه الله أما هو فلا يدافع عن نفسه...

هو لا يبرر نفسه، بل الله هو الذي يبرره. كما حدث بالنسبة إلى يوسف الصديق. بيع من إخوته كعبد، فلم يدافع عن نفسه... واتهمته زوجة سيده زورًا، فلم يدافع عن نفسه، وأُلقي في السجن، إلى أن دافع الرب عنه...

والقديس أبا مقار الكبير، أُتُّهم في خطية مماثلة، فلم يدافع عن نفسه، وكان يكدّ في عمل يديه، ويقول لنفسه: "كدَّ يا مقارة، فقد صارت لك امرأة وبنون". وظل هكذا، إلى أن أظهر الرَّب براءته. تعثرت ولادة المرأة، فاعترفت بأنها ظلمته.

وكما أن آبا مقار ويوسف الصديق لم يُدافعا عن نفسيهما، كذلك القديسة مارينا التي احتملت عار الخطية ظلمًا. ولم تُكتشف براءتها إلاَّ بموتها، فظهر أنها فتاة وليس رجلًا!

الدفاع عن النفس

أما الدفاع عن النفس وتبرير الذات فهو خطية قديمة جدًا.

بدأت هذه الخطية منذ حواء وآدم. فكل منهما حاول تبرير ذاته، ورفض أن يعترف ويقول: "أخطأت".

أما نحن فورثنا الخطية، بل ورثها قايين، أول ابن لآدم.

واســتمرت هذه الخطية في طبع البشــرية، وارتبطت بخطايا أخرى كثيرة، فلا توجد خطية عاقر. كل خطية لها أولاد.

خطايا ترتبط بالدفاع عن النفس

✞ أول خطية ترتبط بالدفاع عن النفس هي الكبرياء...

فالإنسـان يدافع عن نفسـه، ليبدو بارًا، بدافع الكبرياء. أما المتواضـع، فلا يهمه أن يأخذ عنه الناس فكرة حسنة لذلك لا يدافع عن نفسه. بل قد يتهم نفسه أمام الناس...

✞ من الخطايا الأخرى التي ترتبط بالدفاع عن النفس، الكذب.

الكذب غطاء يغطي الخطية. وإن انكشـــف قد يُغطّىَ بكذبة أخرى. وما أكثر قصص الكتاب التي توضح هذا الأمر.

في قصة سوسنة العفيفة، ارتبط الدفاع عن النفس بالكذب. وأخوة يوسف عندما باعوه، غطوا الخطية بكذبة، فقالوا: إن وحشًا رديئًا افترسه، ولطخوا قميصه بالدم كدليل (تك٣٧: ٣٣)!

انظر إلى نفسك، في كل مرة تدافع فيها عن نفسك، كم كذبة وقعت فيها.

كمن يدعي المرض، لكي يدافع عن نفســه في غيابه، ويشــرك معه في الكذب طبيبًا!

من الأخطاء الأخرى المرتبطة بالدفاع...

✞ إلقاء الذنب على الآخرين.

فلكي تثبت براءتك، تلقي تبعة الخطأ على غيرك!

هكذا فعل آدم، حينما برر نفسه بإلقاء التبعة على حواء.

وهكذا فعلت حواء حينما بررت نفسها بإلقاء التبعة على الحيّة.

بل إن آدم حاول أن يلقي التبعة على الله نفســه "الْمَرْأَةُ الَّتِي جَعَلْتَهَا مَعِي هِيَ أَعْطَتْنِي مِنَ الشَّجَرَةِ فَأَكَلْتُ" (تك٣: ١٢).

✞ وهذا يرينا مدى ارتباط هذه الخطية، بالتجديف على الله.

إنســان يقع في إشــكال، ربما بســبب إهماله. طالب يرســب، ربما لعدم مذاكرته. شخص يقبض عليه، ربما بسبب أخطائه. في كل ذلك أو غيره، ما أسـهل أن يتذمر على الله، ويتهمه بأنه يضـطهده، أو بأنه قد تركه، أو بأنه السبب!

✞ وقد يدافع الإنسان عن نفسه، بالتبجح...

ومن أمثلة هذا الأمر قايين، الذي قتل أخاه. ولما سـأله الله: "أَيْنَ هَابِيلُ أَخُوكَ؟" أجاب في تبجحٍ ليدافع عن نفسـه: "أَحَارِسٌ أَنَا لأَخِي؟!" (تك٤: ٩).

والبعض قد يقع في التبجح، بأن يهاجم كوسـيلة للدفاع، كالمثل العامي الذي يقول: "خده قبل ما ياخدك"...

ومن أمثلة الذين وقعوا فيما يشبه التجديف، في دفاعهم عن أنفسهم.

✞ أيوب الصديق..

إنه في تبريره عن ذاته، يقول لله: "أَحَسَنٌ عِنْدَكَ أَنْ تَظْلِمَ؟!" (أي١٠: ٣)؛ "تَسْـتَذْنِبُنِي لِكَيْ تَتَبَرَّرَ أَنْتَ؟" (أي٤٠: ٨)، "أَعْلِمْنِي ذَنْبِي وَخَطِيَّتِي؟" (أي١٣)، "فِي عِلْمِكَ أَنِّي لَسْتُ مُذْنِبًا، وَلاَ مُنْقِذَ مِنْ يَدِكَ!" (أي١٠: ٧). وقال لأصـحابه: "فَاعْلَمُوا إِذًا أَنَّ اللهَ قَدْ عَوَّجَنِي، وَلَفَّ عَلَيَّ أُحْبُولَتَهُ" (أي١٩: ٦). **إنَّ الدفاعَ عن النفسِ قد يرتبط أيضًا بالغضبِ والثورة، وبإهانة الآخرين. وربما يؤدي أيضًا إلى الشتيمة والانتقام.**

أيوب الصديق في دفاعه عن نفسه ضد أصحابه الثلاثة، قال لهم: "مُعَزُّونَ مُتْعِبُونَ كُلُّكُمْ؛ هَلْ مِنْ نِهَايَةٍ لِكَلاَمٍ فَارِغٍ؟!" (أي١٦: ٢-٣)،

"لَيْتَكُمْ تَصْـــمُتُونَ صَـــمْتًا. يَكُونُ ذلِكَ لَكُمْ حِكْمَةً" (أي١٣: ٥) "أَمَّا أَنْتُمْ فَمُلَفِّقُو كَذِبٍ. أَطِبَّاءُ بَطَّالُونَ كُلُّكُمْ" (أي١٣: ٤).

بطرس الرسول، في دفاعه، أخرج سيفه من غمده وقطع أذن العبد، فأراه السيد المسيح أن هذه الطريقة لا تناسبنا في الدفاع عن أنفسنا. وقال له: "رُدَّ سَيْفَكَ إِلَى مَكَانِهِ" (مت٢٦: ٥٢).

✞ والبعض في الدفاع عن نفسه، يقع في المقاومة والجدل...

يُكثر الكلام بطريقة متعبة، وفي مناقشـــة غبية، يتضـــح فيها عنصـــر المغالطة، لمجرد الدفاع.

وفي كل ذلك يكون المدافع عن نفسه سبب عثرة للآخرين.

وذلك عن كثرة ما يقع فيه من أخطاء تُعثر الناس.

بينما الشـخص الذي لا يدافع عن نفسـه، وقد يقبل الخطأ على نفسـه في هدوء، يكون قدوة للآخرين، وينتفعون كثيرًا من اتضـاعه ومن هدوئه ومن ســـلامـه الـداخلي. **على أن من أخطر الأمور في الـدفـاع عن النفس محاولة فلسفة الخطأ، بقلب القيم، وتغيير موازين الأمور.**

وهكـذا يحـاول المخطئ أن يُلبس البـاطـل ثوب الحقِّ، لكي ينجو من مسئولية الباطل الذي وقع فيه، مدّعيًا أنه حقّ!

ومن هنا نشأت كثير من المذاهب الفلسفية والعقلية والاجتماعية والتربوية، بسبب محاولة فلسفة الأخطاء وتبريرها عقليًا.

إنسان يقسو على أولاده، فيُلَبس القسوة ثوب الحزم، ويستخدم بدون فهم العبارة التي تقول: "أدّب ابنك بقضيبٍ من حديد"، وهكذا لا يرد على خطئه فقط، إنما يؤسس مبدأ في معاملة الأبناء. وقد يضرب امرأته، فإن عاتبته، يضع مبدأ آخر في حقِّ الرجل في ضرب امرأته. ويصير الخطأ فلسفة. الذي يكنز أمواله بلا مبرر، والبخيل الذي لا ينفق على الضروريات، كل منهما يبرر موقفه بفلسفة في الاقتصاد، ويتهم الذي ينفق بالإسراف وتبديد الأموال وقلة العقل!!

✞ وبهذا الأسلوب في الدفاع وقع الهراطقة في البدع.

لو أن أحدهم اعترف أنه أخطأ، ما قامت هرطقته، ولِانتهى الأمر. ولكن إصراره على تبرير ذاته والدفاع عن نفسه، جعله يبحث عن أدلة عقلية أو منطقية يثبت بها رأيه وأنه لم يخطئ. وهكذا يبدأ الهرطوقي يفلسف أخطاءه... وقد يستخدم نصوصًا وآيات من الكتاب في غير ما قُصد منها، ويضع للناس مفاهيم جديدة خاطئة سببها الدفاع عن النفس!

ما أظلم الناس في استشهادهم بالآيات وبالنصوص!!

كل مذهب من المذاهب، مهما كان خطأه واضحًا، يحاول أن يثبت خطأه بالآيات وبالنصوص. ومن يعارضونه يستخدمون أيضًا الآيات والنصوص. ويضيع الحق في التفسير الخاطئ للنصوص...

إن الدفاع عن النفس، يجر إلى أخطاء وأخطار كثيرة كما رأينا. ولعل أبشعه الدفاع عن النفس أمام الله...

بينما أمام الله ينبغي أن "يَسْتَدَّ كُلُّ فَمٍ" (رو٣: ١٩). ولا يقول الإنسان سوى كلمة "أخطأت، سامحني، وارحمني".

✞ الاعتراف بالخطية.

❖ إن الاعتراف بالخطيئة يجلب العفو، ومحاولة تبرير الذات تجلب الدينونة، سواء أمام الله أو أمام الناس.

❖ إن اعتذرت لأحد، تنتهي المشكلة بينك وبينه، لأنك في الاعتذار لا تبرر ذاتك. أما إن ظللت تجادل، يتصاعد الموقف، وتزيد المشكلة، وتكون كمن يصر على الخطأ. وكثير من الإشكالات الزوجية والعائلية، سببها إصرار كل طرف على أنه لم يخطئ، وأن الخطأ في الطرف الآخر!

❖ إن كلمة (أخطأت) لها مفعول عميق في إذابة المشاكل.

✞ متى يجب الدفاع عن النفس؟

ولكن هناك موقفًا يصلح فيه الدفاع...

إن كان شـــخص ثائرًا عليك ظانًا أنك أهنته أو خنته. وإن اعترفت بذلك تزداد ثورته، وربما تنقطع علاقتكما، وتسوء العواقب. بينما إن شرحت له حقيقة الأمر، وأنك لم تُهنه ولم تخُنه، تهدأ نفسه، ويسود السلام بينكما.

حينئذ لا يكون سـبب الدفاع عن النفس هو تبرير الذات، وإنما هو ربح الآخرين. وإرضاؤهم وتثبيت المحبة.

ولا يكون هذا دفاعًا، وإنما هو توضـــيح لموقف. وهذا التوضـــيح هو والاعتذار، لهما نتيجة واحدة...

يا إخوتي، إن الدفاع عن النفس أمر ســـهل يقدر عليه الكل. أما عدم الدفاع عن النفس فهو شيمة الأقوياء.

المسيح القوي "ظُلِمَ أَمَّا هُوَ فَتَذَلَّلَ وَلَمْ يَفْتَحْ فَاهُ" (إش٥٣: ٧).

لم يدافع عن نفســـه أمام مجلس الســـنهدريم، ولم يدافع عن نفســـه أمام بيلاطس. وبصمته كسب الموقف. وأعطانا تعليمًا عن الخد الآخر، وعن الميل الثاني...

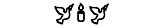

المتكأ الأخير*

أكلمكم عن نقطة أخرى في حياة الاتضاع وهي المتكأ الأخير، ولا أقصد بالأخير من جهة المكان، وإنما من جهة المكانة.

في التواضع يشعر الإنسان أنه آخر الكل، وأنه أقل من الكل، ولا يستحق شيئًا، لذلك يأخذ المتكأ الأخير، ويكون ذلك عن تواضع حقيقي، مبني على معرفة حقيقية للنفس، وليس مجرد مظهرية...

أما إذا ارتفع الإنسان في عيني نفسه، فإنه لا يقبل لها المتكأ الأخير. ويثور على هذا الوضع، إن وجد فيه.

ما أجمل قول الشيخ الروحاني في بستان الرهبان: **"أينما حللت، كن صغير إخوتك، وخديمهم"**.

ويصلي القديس أغسطينوس قائلًا: "أطلب إليك يا رب، من أجل سادتي، عبيدك"، مسميًا رعيته سادته لأنه خادمهم.

ونجد في الكتاب أمثلة كثيرة لمن اتخذوا المتكأ الأخير...

* مقال لقداسة البابا شنوده نُشر في مجلة الكرازة، بتاريخ ٣٠ يونيو ١٩٧٨م

السيدة العذراء

وهي والدة الإله، لما سمعت أن أليصابات حبلى، سافرت إليها عبر الجبال، ومكثت معها ثلاثة أشهر تخدمها حتى ولدت... صارت خادمة وهي الملكة القائمة عن يمين الملك... **"فلأكن والدة الله، ولكن يجب أن أخدم هذه العجوز".**

بل لعل أروع مثل في الوجود هو السيد المسيح نفسه: "لأَن ابْنَ الإِنْسَانِ لَمْ يَأْتِ لِيُخْدَمَ بَلْ لِيَخْدِم" (مت٢٠: ٢٨).

بولس الرسول القديس العظيم، وضع نفسه آخر الكل، وقال عن ظهور المسيح بعد القيامة: "وَآخِرَ الْكُلِّ كَأَنَّهُ لِلسِّقْطِ ظَهَرَ لِي أَنَا... أَنَا الَّذِي لَسْتُ أَهْلًا لأَنْ أُدْعَى رَسُولًا لأَنِّي اضْطَهَدْتُ كَنِيسَةَ اللهِ" (١كو١٥:٨، ٩).

إبراهيم أبو الآباء، قدم لوطًا ابن أخيه على نفسه: وطلب إليه أن ينتقي ما يشاء من الأرض ويترك له ما يرفضه.

فاختار لوط الأرض الخضراء الخصبة المعشبة، وترك الجرداء لعمّه إبراهيم الذي قبل أن يفضله على نفسه... وإبراهيم هذا الذي فضل لوطًا على نفسه، باركه الرَّب أكثر...

داود – بعد أن مسحه الرَّب ملكًا – فَضل شاول على نفسه.

مع أن شـــاول كان قد رفضـــه الرَّب، وكان قد بغته شـــيطان، وكان داود يصلي لأجله. ومع ذلك كان داود يفضّله على نفسه، ويعتبره مسيح الرَّب، واشتغل خادمًا له وحامل سلاح، وأخذ موقف المتكأ الأخير حياله...

إن المتضع لا يعطي لنفسه أسبقية على غيره، وإنما دائمًا يفضل غيره على نفسه، ويقول: هذا أفضل مني. وهذا أحق مني؛ ويضع نفسه في آخر القائمة.

كثير من القديســين هربوا من المتكآت الأولى، ومن المناصـــب والألقاب والوظائف، وعاشوا آخر الكل. بلا مركز ولا لقب. وانطبق عليهم قول أحد الآباء: "**من ســـعى وراء الكرامة، هربت منه. ومن هرب منها بمعرفة سعت وراءه، وأرشدت جميع الناس إليه**".

القديس الأنبا رويس، عاش في جيله في المتكأ الأخير، ما كان أســقفًا، ولا كاهنًا ولا راهبًا، ولا صـــاحب أية وظيفة، وإنما كان جَمَّالًا يقتاد جمله كرجل فقير، وهو أرفع مقامًا في روحياته من الكل.

في الســماء ســنرى كثيرًا من القديســين الذين عاشــوا في المتكأ الأخير مجهولين من الناس، ولكن معروفين من الله.

هؤلاء لم يضــعهم العالم في المتكآت الأولى، وما طلبوها لأنفســهم، ولكن

الله الذي يعرف مقدارهم، سيغير وضعهم ويرفعهم. "هكَذَا يَكُونُ الآخِرُونَ أَوَّلِينَ وَالأَوَّلُونَ آخِرِينَ" (مت٢٠: ١٦)، وكما قال الكتاب: "مَنْ يَرْفَعُ نَفْسَهُ يَتَّضِعُ وَمَنْ يَضَعُ نَفْسَهُ يَرْتَفِعُ" (لو١٤: ١١).

شهوة المتكآت الأولى

مشكلتنا أننا نريد أن نأخذ كرامتنا على الأرض. نريد أن نرتفع ههنا ونظهر، ونسبق الصفوف ونتقدم. لذلك تتعبنا شهوة المتكآت الأولى، التي أتعبت كثيرين منذ القديم.

كان شهوة (المتكأ الأول) هي التي أسقطت الشيطان (إش١٤).

قال في قلبه أصعد فوق مرتفعات السحاب: "أَصْعَدُ إِلَى السَّمَاوَاتِ. أَرْفَعُ كُرْسِيِّي فَوْقَ كَوَاكِبِ اللهِ" (إش١٤: ١٣).

هذا الفوق هو الذي أضاع رئيس الملائكة البهي وأسقطه...

وشهوة المتكأ الأول كما أسقطت الشيطان، حاربت أيضًا التلاميذ، فتنازعوا فيما بينهم، مَن هو الأول فيهم!

وردّ عليهم الرب قائلًا: لا يكن فيكم هذا الفكر "أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رُؤَسَاءَ الأُمَمِ يَسُودُونَهُمْ، وَالْعُظَمَاءَ يَتَسَلَّطُونَ عَلَيْهِمْ. فَلاَ يَكُونُ هكَذَا فِيكُمْ. بَلْ مَنْ

أَرَادَ أَنْ يَكُونَ فِيكُمْ عَظِيمًا فَلْيَكُنْ لَكُمْ خَادِمًا. وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ فِيكُمْ أَوَّلًا فَلْيَكُنْ لَكُمْ عَبْدًا" (مت٢٠: ٢٥-٢٧). (أي يأخذ المتكأ الأخير).

بشهوة المتكأ الأول، قالت أم ابني زبدي للرَّب: "قُلْ أَنْ يَجْلِسَ ابْنَايَ هذَانِ وَاحِدٌ عَنْ يَمِينِكَ وَالآخَرُ عَنِ الْيَسَارِ" (مت٢٠: ٢١). فرفض الرب النزاع حول المتكآت الأولى ووجهها إلى الكأس التي ينبغي لهما أن يشـــرباها، والصبغة التي ينبغي أن يصطبغا بها...

ما أكثر الذين يحبون المتكآت الأولى فيطلبون المواهب والقوات!!

يريدون أن يكونوا أصـــحاب مواهب، وأن يتكلموا بألســـنة، وأن يفتخروا قائلين: "حَتَّى الشَّيَاطِينُ تَخْضَعُ لَنَا بِاسْمِكَ" (لو١٠: ١٧).

أما الإنسان المتواضع، فيقول:

"أنا يا رب لا أستحق شيئًا. مجرد الوقوف أمامك، أمر يا رب لا أستحقه. مجرد أن تستمع لصوتي في الصلاة أمر لا أستحقه. مَن أنا حتى أكلمك، أنت الذي تقف أمامك الملائكة، والشـــاروبيم والســـارافيم، والجمع غير المحصى الذي للقوات السمائية".

هل هذا الذي يضع نفسه في آخر متكأ، يطلب مواهب؟!

انظـروا، مـن ذا ذُبـح لـه العجـل المسـمن، ولـبس حُلـة جديـدة وخاتمًـا

فـي يـده، ألـيس الابـن الـذي قـال لأبيـه: "وَلَسْـتُ مُسْـتَحِقًّا أَنْ أُدْعَـى لَـكَ ابْنًا" (لو١٥: ١٩) بعكس الابن الكبير الذي افتخر بأعماله.

✝ بعكس هذا نجد في الكتاب صراعات حول المتكآت الأولى.

نجد صـــراعًا بين **ليئة وراحيل** حول المتكأ الأول في قلب الرجل، والمتكأ الأول في إنجاب البنين.

ونجد صـــراعًا بين **عيســـو ويعقوب**، مَن منهما يرى الحياة قبل الآخر، وصراعًا آخر حول البكورية والأولوية والبركة...

بل نجد في تاريخ الكنيسة أيضًا صراعًا حول المتكأ الأول...

والمرأة رأيناها في بعض الكنائس الغربية تتصـــارع حول المتكأ الأول، وتطالب بالكهنوت، لأول مرة في التاريخ، الأمر الذي لم تطلبه الســـيدة العذراء والدة الإله!

✝ فضائل نبعد بها عن المتكآت الأولى

هناك ثلاث فضـــائل إن اقتنيناها، نبعد عن محبة المتكآت الأولى، ونفضـل المتكأ الأخير عن اقتناع: وأعني بها التواضـع، ومعرفة الذات، ومحبة الآخرين.

إن كنت **متواضع القلب، وعرفت نفسك** على حقيقتها، وأيقنت كم أنت خاطئ، وكم أنت بعيد عن الكمال المطلوب منك، وبعيد عن الصورة الإلهية، حينئذ ستنسحق نفسك، وتشعر بعدم استحقاق للمتكآت الأولى، هذا إذا كنت عادلًا مع نفسك.

كذلك إن كانت لك محبة نحو الآخرين، فإنك بالمحبة ستفضل غيرك على نفسك، وبالمحبة تقدم غيرك على نفسك.

هذا بعكس الذاتية، التي بها تُفضل ذاتك، وتحب أن تتقدم على غيرك، وتأخذ المتكأ الأول... كم من مرة أحب الناس المتكآت الأولى، فكانت النتيجة أن وضعهم الرب في آخر المتكآت. ولهذا أمثلة:

الذين ضبطوا **المرأة الخاطئة** في ذات الفعل، وضعوها في المتكأ الأخير كخاطئة، وجعلوا أنفسهم في المتكآت الأولى من البر وعدم الخطية، فأخجلهم الرب وأظهر لهم أنهم خطاة أيضًا. أما المرأة فرفعها بقوله: "وَلاَ أَنَا أَدِينُكِ. اذْهَبِي وَلاَ تُخْطِئِي أَيْضًا" (يو٨: ١١).

وكذلك فعل مع المرأة الخاطئة التي بللت قدميه بدموعها، ورفعها على الفريسي الذي كان يظن نفسه شيئًا، ويدينها...

وبنفس الأسلوب رفع العشار الذي أخذ المتكأ الأخير، ووقف من بعيد،

لا يجرؤ أن يرفع نظره إلى فوق، وفضله على الفريسي الذي يظن نفسه أفضل من الناس!!

كثيرون يقعون في محبة المتكأ الأول بأنواع وطرق شتى: منها المنافسة والتزاحم في كل أمور الحياة. الناس يتقافزون على بعضهم البعض في طريق الحياة. الكل يريد أن يسبق...

يتزاحمون حتى في وقت التناول الذي يليق به التواضع والانسحاق.

ومحبة المتكأ الأول تظهر حتى في الأحاديث، حيث يقاطع إنسان غيره، ويريد أن يسبقه في الكلام، أو أن يتكلم بدلًا منه. وقليلون هم الذين يتخذون المتكأ الأخير، ويفضلون الاستماع على التكلم، والاستفادة على الرغبة في الإفادة...

هناك إنسان يحب أن يضع نفسه في المتكأ الأول، أو يحب لنفسه على الدوام صورة المُعلّم، وصورة الناصح والمرشد. وغيره يحارَب بهذا الأمر في رغبة الصدارة والقيادة.

وهكذا يدخل الناس في منافسات، حول عضوية الجمعيات والهيئات ورئاستها. كل منهم يريد أن يقود ويدير ويدبر. وكل منهم يحطم رأي غيره، ليظهر هو في الصورة. والكل ينسى عبارة جميلة قال فيها أحد

القديسين: "**خيرُ الناس مَن لا يبالي بالدنيا، في يَدِ مَن كانت**".

إذًا فالنسك يساعدنا كثيرًا على الزهد في المتكآت الأولى.

إن كنا نشعر أننا غرباء على الأرض، ونشتهي الوطن السمائي، حينئذ سوف لا نبالي بالمتكآت الأولى على الأرض، ولا تُمَثل في نظرنا شيئًا ذا قيمة نشتهيه كقول القديس أغسطينوس: "جلست على قمة العالم حينما أحسست في نفسي أني لا أشتهي شيئًا ولا أخاف شيئًا".

لا تبحثوا عن المتكآت الأولى هنا، ابحثوا بالحري أن يكون لكم متكأ في حضن الآب، بالحب والاتضاع.

✝🕊✝

الرجاء*

أحدثكم عن فضـيلة من أهم الفضـائل في حياة الإنسـان... إنها فضـيلة الرجاء.

فضيلة الرجاء

الرجاء هو إحدى الفضـــائل الثلاث الكبرى (الإيمان والرجاء والمحبة)، حسبما ذكر القديس بولس الرسول (١كو١٣).

مَن فقد هذا الرجاء يوقعه الشـيطان في الكآبة والقلق، بل يوقعه أيضًـا في اليـأس مثلمـا حـدث مع يهوذا الإســـخريوطي، الـذي قطع رجـاءه في الخلاص، فشنق نفسه...

✞ إن العمل على قطع الرجاء هو من حروب الشياطين...

وقد شـــرحه داود النبي في المزمور الثالث قائلًا: "يَا رَبُّ لمَاذَا كَثُرَ الَّذِينَ يُحْزِنُونَنِي. كَثِيرُونَ قَامُوا عَلَيَّ. كَثِيرُونَ يَقُولُونَ لِنَفْسِـــي: لَيْسَ لَهُ خَلاَصٌ بِإِلَهِهِ"، **ويستطرد داود في روح الرجاء**: "فَأَنْتَ يَا رَبُّ هُوَ نَاصِرِي، مَجْدِي

* مقال لقداسة البابا شنوده نُشر في مجلة الكرازة، بتاريخ ٢٨ يوليو ١٩٧٨م

وَرَافِعُ رَأْسِي" (مز ٣: ١-٣).

إن الشيطان يقول للإنسان الخاطئ: "لا خلاص، لا فائدة من كل جهادك. لقد تخلى الرب عنك. لا معونة لك منه. قد وقعت في يدي وانتهى أمرك". يقول هذا لكيما يستسلم الإنسان له في يأس، فيقوده إلى الهلاك.

✞ أما السيد المسيح فهو ينبوع الرجاء، بل هو رجاؤنا...

إننا نقول له في صلواتنا: "يا رجاء مَن ليس له رجاء ومعين مَن ليس له معين. عزاء صغيري القلوب. ميناء الذين في العاصف". إن الذين تتعبهم العواصف في بحر هذا العالم. ميناؤهم الذي يهبهم الرجاء، هو الرب يسوع...

لهذا قيل عنه أيضًا إنه أتى "لأُنَادِيَ لِلْمَسْبِيِّينَ بِالْعِتْقِ، وَلِلْمَأْسُورِينَ بِالإِطْلاَقِ" (إش٦١: ١). جاء يمنح رجاء لكل أحد.

بل أن من أروع ما قيل عن نعمة الرجاء في عمل الرب أن ابن الإنسان جاء "يَطْلُبَ وَيُخَلِّصَ مَا قَدْ هَلَكَ" (لو١٩: ١٠).

لم يأت فقط ليخلص الخطاة والضالين فقط، أو ليخلص العشارين والسامريين والأمم، وإنما جاء يطلب ويخلص "**مَا قَدْ هَلَكَ**"! أهناك رجاء أعمق من هذا؟ حتى للهالكين!

بل قيل عنه أيضًا في عمل الرجاء إنه: "قَصَبَةً مَرْضُوضَةً لاَ يَقْصِفُ، وَفَتِيلَةً خَامِدَةً لاَ يُطْفِئُ" (إش٤٢: ٣).

جميل أن نشعر أنه يوجد رجاء حتى للقصبة المرضوضة والفتيلة المدخنة... إنها رقة المسيحية التي تعزي صغيري القلوب... تشدد الركب المخلعة، والأيدي المسترخية.

أتراك ركبة مخلعة، لا تستطيع أن تسير في طريق الرَّب؟! لا تفقد رجاءك. الرب قادر أن يشددك...

إنه يفتح الباب أمام الكل، ويدعوك إليه مهما كانت حالتك رديئة.. حتى إن كانت خطاياك كالقرمز، يغسلك، لا لكي تبيض فقط، وإنما لتبيض أكثر من الثلج...!

✞ إنه يوجد رجاء، مهما طال الوقت وبدا الأمل مفقودًا.

حتى إن شاخ **إبراهيم**، ومرت عشرات السنوات دون أن يعطى نسلًا، وحتى إن جفَ مستودع سارة... هناك رجاءٌ أن يكون لكليهما تنعم. ما دام الله يريد، وما دام يقدر، إذًا فهناك رجاء. إنه الله الذي لا يعسر عليه أمر. يقدم لنا عبارة رجاء هي:

"غَيْرُ الْمُسْتَطَاعِ عِنْدَ النَّاسِ مُسْتَطَاعٌ عِنْدَ اللهِ" (لو١٨: ٢٧).

حتى إن أُلقيت في جب الأســـود مثل **دانيال**، وحتى إن أُلقيت في أتون النار مثل **الثلاثة فتية**، فلا تفقد الرجاء: الله قادر أن يبطل قوة النار، وقادر أن يرسل ملاكه فيسد أفواه الأسود.

المهم أن تكون لك العين الروحية المبصـــرة، التي تســـتطيع – في كل ضيقة وتجربة – أن تبصر يد الله ومعونته...

لقد خاف **جيحزي** لما رأى قوات العدو محيطة بالمدينة، ذلك لأنه لم يكن يبصر ملائكة الله الذين أرسلهم للإنقاذ. لهذا صلى **أليشع النبي** من أجله وقال: افتح يا رب عيني الغلام، ليرى أن الذين معنا أكثر من الذين علينا. "لا تَخَفْ، لأَنَّ الَّذِينَ مَعَنَا أَكْثَرُ مِنَ الَّذِينَ مَعَهُمْ وَصَـــلَّى أَلِيشَـــعُ وَقَالَ: يَا رَبُّ، افْتَحْ عَيْنَيْهِ فَيُبْصِرَ" (٢مل٦: ١٦، ١٧).

ونفس الوضع حدث لشعب **بني إسرائيل** أمام البحر الأحمر، إذ رأوا البحر أمامهم والعدو خلفهم، فخافوا. أما موسى النبي المملوء بالرجاء وبالإيمان، فإنه قال: "قِفُوا وَانْظُرُوا خَلاَصَ الرَّبِّ. الرَّبُّ يُقَاتِلُ عَنْكُمْ وَأَنْتُمْ تَصْـــمُتُونَ" (خر١٤: ١٣، ١٤).

إن الرجاء يرى طريقًا قد شقّه الرَّب في البحر، ويرى الصخرة تُفجّر ماءً، ويرى خلاص الرَّب وسط الضيقات.

حتى إن تأخر الرَّب إلى الهزيع الرابع من الليل، لا يفقد المؤمن رجاءه، ولا ييأس. إنه قد يتأخر، ولكنه لا بد سيأتي وينتهر الأمواج والرياح...

✞ ولقد منحنا الرب في الكتاب أمثلة كثيرة من الرجاء

لقد كان شفاء الأمراض المستعصية، رمزًا يدل على الرجاء.

بالنسبة إلى الشخص العادي، قد يفقد الرجاء أمام مرض خطير كالبرص، أو عاهة غير قابلة للشفاء كالعمى. أو أمام يد يابسة لا تتحرك أو مرض طالت مدته كمرض نازفة الدم التي أنفقت كل مالها على الأطباء ١٨ سنة دون أية فائدة.

أما المؤمن فله رجاء، مهما كانت الحالة تدعو إلى اليأس. إن الله الذي طهر الأبرص، وفتح عيني الأعمى، وحرك اليد اليابسة، وأوقف دم النازفة، قادر أن ينجي أي إنسان من خطيئته، مهما بدا خلاصه صعبًا...

✞ وفي إقامة الموتى، ترى لونًا من الرجاء أكثر عمقًا...

ولقد قدم لنا الرب أمثلة من إقامة الموتى تختلف في الدرجة. فقد أقام ابنة يايرس، وهي ما زالت في بيتها، وأقام ابن أرملة نايين، بعد أن وضعوه في الصندوق وخرجوا به إلى الطريق وسط المشيّعين. وأقام لعازر بعد أن

وضعوه في القبر، ومضت عليه ٤ أيام حتى قالت أخته أنه: "قَدْ أَنْتَنَ.." (يو١١: ٣٩)، وفقدت رجاءها في إقامته!

أتراك في موت الخطية، يبكي عليك أصحابك، أو يشيعك الناس في حزن؟ أو تراك قد أنتنت في موت الخطية ومضت عليك مدة تدعو إلى اليأس، ثق. هناك رجاء في أن تقوم...

إن الله الذي أقام لعازر، يستطيع أن يقيمك. لا تفقد الأمل أبدًا، فإن الله "يُرِيدُ أَنَّ جَمِيعَ النَّاسِ يَخْلُصُونَ، وَإِلَى مَعْرِفَةِ الْحَقِّ يُقْبِلُونَ" (١تي٢: ٤). وهو يملك القوة على تخليصك...

✞ إذًا فليتشدد قلبك وانتظر الرب...

الرب الذي قال في المزمور: "مِنْ أَجْلِ شَقَاءِ المسَاكِينِ وتَنهُّدِ البَائِسِينَ الآنَ أَقُومُ، يقُولُ الرَّبُّ، أصْنَعُ الَخَلاصَ عَلَانِيةً" (مز١٢: ٥). **نعم، قم يا رب.** قم وليتبدد جميع أعدائك، وليهرب من قدام وجهك كل مبغضي اسمك القدوس (عد١٠: ٣٥). أما شعبك الذي ينتظرك في رجاء، فليكن بالبركة ألوف ألوف وربوات ربوات يصنعون مشيئتك.

عبارة أخرى من عبارات الرجاء، يقدمها لنا سفر إشعياء: "وَأَمَّا مُنْتَظِرُو الرَّبِّ فَيُجَدِّدُونَ قُوَّةً. يَرْفَعُونَ أَجْنِحَةً كَالنُّسُورِ. يَرْكُضُونَ وَلاَ يَتْعَبُونَ.

يَمْشُونَ وَلاَ يُعْيُونَ" (إش٤٠: ٣١).

وحتى إن أدركهم الإعياء، يدركهم قول الرب: "يُعْطِي الْمُعْيِيَ قُدْرَةً، وَلِعَدِيمِ الْقُوَّةِ يُكَثِّرُ شِدَّةً" (إش٤٠: ٢٩).

✞ مثال آخر للرجاء، هو أنشودة العاقر التي لم تلد...

يقول لها الرب في سفر إشعياء: "تَرَنَّمِي أَيَّتُهَا الْعَاقِرُ الَّتِي لَمْ تَلِدْ. أَشِيدِي بِالتَّرَنُّمِ. أَوْسِعِي مَكَانَ خَيْمَتِكِ، وَلْتُبْسَطْ شُقَقُ مَسَاكِنِكِ. لأَنَّكِ تَمْتَدِّينَ إِلَى الْيَمِينِ وَإِلَى الْيَسَارِ، وَيَرِثُ نَسْلُكِ أُمَمًا، وَيُعْمِرُ مُدُنًا خَرِبَةً" (إش٥٤:١-٣).

✞ مثال آخر، هو الأرض الخربة في أول سفر التكوين.

كانت الأرض خربة وخالية، ومغمورة بالمياه، وعلى وجه الغمر ظلمة. ولكنها لم تبق كذلك، لأن روح الله كان يرف على وجه المياه. وإذا بالله يبدد ظلمتها، ويقول فليكن نور. فكان نور. ورأى الله النور أنه حسن. ثم زين الله هذه الأرض بالأزهار والأشجار والأطيار (تك١).

الصورة الجميلة التي انتقلت إليها الأرض بعد الخراب، إنما تعطينا رجاء مهما غمرتنا المياه والظلمة...

إن الله يعمل، حتى ولو لم نعمل نحن. لقد قيل عنه إنه كان يجول، يصنع

خيرًا (أع١٠: ٣٨). فما معنى هذا؟

كان يجول، يعطي هذا نعمة، ويعطي هذا قوة، وذاك مغفرة، وذاك توبة. "يَطْلُبَ وَيُخَلِّصَ مَا قَدْ هَلَكَ" (لو١٩: ١٠).

إذًا فلنفرح بالرب، لأنه قيل: "فَرِحِينَ فِي الرَّجَاءِ" (رو١٢: ١٢).

إنَّ الرجاءَ طاقةٌ من نور تفتح على النفس التي اكتنفتها الظلمة، فتنيرها وتبهجها. الرجاء هو طاقة من فرح، تفتقد النفس التي اكتنفتها الكآبة، فتزيل كآبتها... الرجاء عمل من أعمال الروح القدس، يلد الفرح والسلام... عش في هذا الفرح، مهما ظننت أن النعمة قد تأخرت عليك.

✞ ولعل من أجمل الأمثلة قصة إيليا النبي وسقوط المطر...

حان وقت نزول المطر، وصلَّى إيليا ولم ينزل المطر، وصلَّى مرة ثانية ومرات ثالثة ورابعة وخامسة وسادسة، ولم ينزل المطر، على الرغم من وعود الله، وعلى الرغم من أن الذي يصلي نبي عظيم. ولكن إيليا لم يفقد رجاءه، فصلى للمرة السابعة. وهنا رأى غيمة في حجم كفة اليد، ففرح وعرف أن المطر سينزل.

إنَّ غيمة صغيرة، في الصلاة السابعة، تبعث الفرح والرجاء.

لا تيأس إذًا إن تأخرت المعونة في الوصول إليك، بل ثق بالرب "وانتظره،

من محرس الصبح إلى الليل" (مز ١٣٠)، طول الوقت وطول العمر. وفي رجائك بالرب امتلأ فرحًا.

مما يبعث على الرجاء أيضًا، أن الله يبحث عنا...

إنه مهتم بخلاصـــنا، أكثر من اهتمامنا بخلاص أنفســـنا. هو الذي يقف على الباب ويقرع، منتظرًا أن نفتح له...

وهو أيضًا يرضى بالقليل، كخطوة إليه. حبة واحدة في العنقود تجعل فيه بركة والرَّب يقبل أصحاب الثلاثين كزرع جيد. كأصحاب الستين والمائة. قلبه الطيب يملؤنا رجاء.

الهدف في الحياة الروحية*

أحدثكم عن (الهدف) في الحياة الروحية، ما هو هدفنا الحقيقي؟ وما هي الأهداف الزائفة والوقتية؟ وكيف يقودنا الهدف السليم إلى عمق الحياة مع الله.

"الهدف" في الحياة الروحية.

إن الهدف يحدد طريق الإنسان في الحياة.

والذي يعيش بلا هدف، يحيا حياة مقلقلة، بلا طعم، بلا معنى. إنه شخص يقضي مجرد أيام على الأرض، بلا ثمر، مثل هذا الإنسان قد يسأل باستمرار: **لماذا نحيا؟ لماذا خلقنا الله؟ ما الحكمة في وجودنا؟**

وحياة هؤلاء، يدركها الضجر والملل والقلق...

وهناك أشخاص لهم أهداف مؤقتة أو قصيرة المدى، مثل شخص هدفه أن ينجح، أو فتاة هدفها أن تتزوج. ثم يتم النجاح أو الزواج، ويبقى صاحبه بلا هدف.

* مقال لقداسة البابا شنوده نُشر في مجلة الكرازة، بتاريخ ٤ أغسطس ١٩٧٨م

إننا لا نسمي هذه أهدافًا، وإنما مجرد رغبات.

وهناك أشـــخاص قد تكون لهم نظرة روحية، فيقولون إن هدفهم هو التوبة أو النقاوة، أو الرهبنة أو الخدمة.

ومع جمال هذه النظرة وروحانيتها، إلا أننا نقول: إن التوبة ليســـت هدفًا في حد ذاتها، ولا النقاوة، والرهبنة ليست هدفًا، ولا يمكن أن تكون الخدمة هدفًا. **كلها مجرد وســائل توصــل إلى الله. أما الهدف الوحيد الحقيقي، الذي لا هدف غيره، فهو الله نفسه.**

كذلك قد يوجد إنســان حكيم يفكر في أبديته، ويرى ذلك هدفًا. وما أسـمى التفكير في الأبدية، **ولكن الأبدية بدون الله ليســت شــيئًا**، ولا قيمة لها بدونه. وما أجمل قول الســيد الرب في حديثه مع الآب: "وَهذِهِ هِيَ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ: أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الإِلهَ الْحَقِيقِيَّ وَحْدَكَ" (يو١٧: ٣).

إذًا الأبدية ليست هدفًا، ولا السماء ولا الفردوس كذلك. الهدف هو الله. ونحن نحب كل هذا لأجله.

هدفنا هو الله.. ومن أجله نحب أورشـليم السـمائية، التي هي مسـكن الله مع الناس. من أجله نحب الملكوت، حيث نتمتع بعشـــرته، وحيث يكون هو نكون نحن أيضًا.

ليس من اللائق أن تتحول الوسائل في نظرنا إلى أهداف.

إنسان قد يحب البرَّ أو الخيرَ أو القداسة، ويجعل ذلك هدفه. ولكن ما البر وما الخير وما القداسة، إلاّ حالة شركتنا مع الله، الذي هو الهدف، والذي نسمي الالتصاق به برًا وخيرًا وقداسة، وتبقى أنشودتنا مع المرتل: **"أمَا أنَا فخيرٌ لي الالتصاق بالرَّبِ" (مز٧٣: ٢٨). إنه الهدف.**

هدفنا إذًا هو أن نعرف الله، ونلتقي به، ونُكَوِّن علاقة معه: نصادقه، نعاشره، نحبه، نثبت فيه وهو فينا، كما يثبت الغصن في الكرمة، نكون مسكنًا له، وهيكلًا لروحه القدوس، نعيش فيه، ونعيش به، ونعيش معه، بِهِ نَحْيَا وَنَتَحَرَّكُ وَنُوجَدُ (أع١٧: ٢٨). **ويصير هو مركز عواطفنا ومركز مشاعرنا، نعطيه كل الحب وكل القلب.** ويكون الله بالنسبة إلينا هو الكل في الكل.

وبهذا الوضع نقول أيضًا: إن العبادة من صلاة وتأمل وسجود ليست هدفًا. **إنها مجرد تعبير عن حبنا للهدف أي الله.**

كثيرون يجعلون هدفهم حياة الصلاة أو التأمل، أو حياة السكون أو الهدوء، أو تكون أهدافهم أن يدركوا درجات في حياة الصوم أو الصمت... وربما من أجل هذا يضطربون ويختلفون. وفي كل ذلك ينسون الهدف

الحقيقي، **الله** الذي يوجهون إليه الصلاة...

فليكن الله هو هدفنا، وليست الوسيلة الموصلة إليه.

وإن صار الله هدفنا، نكتفي به، ولا نحتاج إلى شيء.

نقول له مع **داود:** "وَمَعَكَ لاَ أُرِيدُ شَـــيْئًا فِي الأَرْضِ" (مز٧٣: ٢٥). داود الذي لما عرف الله قال: "الرَّبُّ رَاعِيَّ فَلاَ يُعْوِزُنِي شَـــيْءٌ" (مز٢٣: ١). لم يعد معتازًا إلى شيء، لأن الله قد أشبع قلبه، وملأه، ولم تعد فيه شهوة إلى غيره.

صـار الله هو شـهوة قلبه الوحيدة، وتضـاءل كل شـيء، ومن أجل الله، أصبح القلب مستعدًا أن يترك الكلَّ ما عداه.

قال **بطرس** للسيد المسيح: "تَرَكْنَا كُلَّ شَيْءٍ وَتَبِعْنَاكَ" (لو١٨: ٢٨). ولماذا تركوا كل شـــيء؟ **لأنه لم تعد لأي شـــيء قيمة في ذاته بعد معرفة المسيح.**

أصبحت القيمة الوحيدة، محصورة في هذا الهدف الوحيد، الذي هو الرب، الذي من أجله قال بولس الرسول: "إِنِّي أَحْسِبُ **كُلَّ** شَيْءٍ أَيْضًا **خَسَارَةً** مِنْ أَجْلِ فَضْلِ مَعْرِفَةِ الْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّي، الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ **خَسِرْتُ كُلَّ الأَشْيَاءِ، وَأَنَا أَحْسِبُهَا نُفَايَةً** لِكَيْ أَرْبَحَ الْمَسِيحَ. **وَأُوجَدَ فِيهِ**" (في٣: ٨، ٩).

حقًا، إن صـــار الله هو هدفك، يصـــبح كل شـــيء نفاية في نظرك، ولا تحزن على فقد أي شـــيء آخر، بل إنك أكثر من كل هذا، تقول مع الرسول: "وَلاَ نَفْسِي ثَمِينَةٌ عِنْدِي" (أع٢٠: ٢٤).

وهكذا تختفي الذات أيضًا التي يهتم بها الكثيرون!

الذي ينشـــغل بنفســـه، وتكبر ذاته في عينيه، ويريدها أن تكبر في أعين الناس، ويجاهد لأجل هذه النفس، هذا لم يجعل الله هدفًا له. فإن الله نفسه يقول له: "مَنْ وَجَدَ حَيَاتَهُ يُضِـيعُهَا، وَمَنْ أَضَـاعَ حَيَاتَهُ مِنْ أَجْلِي يَجِدُهَا" (مت١٠: ٣٩).

الذين جعلوا الله هدفهم، سكروا بمحبة الله، وأصبحوا لا يهتمون بشيء مما حولهم. يكفيهم الرَّب، ومعه لا يريدون شيئًا على الأرض.

مثال ذلك المتوحدون في البراري والقفار، والسـواح الذين قضـوا عشـرات السنوات لا يرون فيها وجه إنسان. أترى كان لهؤلاء هدفٌ آخر، أو كانت لهم رغبة أخرى؟!

والذي يجعل الله هدفه، يعيش دائمًا سعيدًا، فرحًا بالرب.

ولا يســـتطيع أحد أن ينزع فرحه منه. لأن هدفه معه في كل حين، لا يستطيع أحد أن يفصله عنه. هو فرح بالرَّب حتى في قلب السجون، كما

قال القديس باسيليوس الكبير لما هددوه بالنفي: "هل سأنفى إلى أرضٍ لا يوجد فيها الله "لِلرَّبِّ الأَرْضُ وَمِلْؤُهَا. الْمَسْكُونَةُ، وَكُلُّ السَّاكِنِينَ فِيهَا" (مز ٢٤: ١)".

أما إن دخلت رغبة أخرى إلى قلب الإنسان إلى جوار الله، فإنها تتعبه، لأنها قد تتحقق وقد لا تتحقق.

انظروا إلى نبي عظيم مثل موسى النبي، تمتع بالله بكل الصور، تحدث معه عند العليقة، وفوق الجبل حيث قضى معه أربعين يومًا. وكان الله يحدثه عند باب خيمة الاجتماع، ومن فوق تابوت العهد، ورأى عجائب الرب وعاش فيها. وبعد هذه العشرة الطويلة، رأينا رغبة في نفس موسى أن يدخل أرض الموعد، أو على الأقل أن يراها!

ما هذا، يا سيدي العظيم، الذي لا أستحق تراب قدميك بركة! هل الذي رأى الله نفسه، وتحدث معه فمًا لأذن، يهمه أن يرى أرضًا أيًا كانت تفيض لبنًا وعسلًا؟ أليس أن العين الشبعانة تدوس العسل...

لهذا فإن الله لما رفض أن يدخله أرض الموعد، فإن ذلك لم يكن عقابًا، بقدر ما كان عتابًا.

إن كل أرض تلتقي فيها بالله هي أرض موعد...

كان **أتون النَّار** أرض موعد بالنســـبة إلى الثلاثة فتية، لأنهم هناك التقوا بالرب. وكانت **جزيرة بطمس** التي نُفي إليها يوحنا الحبيب أرض موعد، لأنه فيها رأى الرب وكشف له ما لا بد أن يكون...

ما دام هدفنا هو الله، فكل مكان نلتقي فيه بالرب هو أرض موعد، ولو داخل **بطن الحوت** كيونان، ولو في **أرض السبي** كدانيال...

يتوه الإنسان الذي له شهوات كثيرة، أو الذي يجد نفسه ضائعًا وسط أهداف عديدة، والحاجة إلى واحد...

لقد وبخ السيد المسيح مرثا بقوله: "أَنْتِ تَهْتَمِّينَ وَتَضْطَرِبِينَ لأَجْلِ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ، وَلكِنَّ الْحَاجَةَ إِلَى وَاحِدٍ" (لو١٠: ٤١-٤٢)، وطوّب مريم أختها لأنها اختارت هذا الواحد... فهل أنت أيضًا توجد في قلبك "أشياء كثيرة" أم تحصر كل اهتمامك في الواحد؟! لذلك حسنًا وصف الآباء حياة الرهبنة في عبارة واحدة، لها عمقها ومغزاها، وهي: "**الانحلال من الكل للارتباط بالواحد**".

وهذا الواحد هو بالنسبة إليهم "الكل في الكل"...

ولهذا لا يكفي أن تعطي الله قلبك، إنما كل القلب...

فلا يبقى في القلب مكان لهدف آخر تشتهيه.

"فَتُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ وَمِنْ كُلِّ قُوَّتِكَ" (تث٦).

ولذلك فإن أحد الآباء وصـــف حياة التوبة، بعبارة عميقة تتعلق بالقلب، فقال: إن التوبة هي استبدال شهوة بشهوة، هي وضع شهوة الله، بدلًا من شهوة العالم والخطية...

حقًا، كلما يتعمق الإنسـان في محبة الله والارتباط به، يتعمق تلقائيًا في فضيلة التجرد، فيموت العالم من قلبه.

ذلك لأنه لا يسـتطيع أن يعبد ربّين، أو يخدم سـيدين. لا يمكن أن يحب الله والعالم معًا، فمحبة العالم عداوة لله، ومحبة الله نار تحرق كل محبة أخرى عالمية...

والذي يتخلص من كل محبة العالم، ويصـير الله هدفه الوحيد، مثل هذا يعيش في سلام كامل مع الله ومع الناس.

وكما قال أحد الآباء: "ازهد فيما في أيدي الناس، يحبك الناس". وهذا الذي لا يشتهي شيئًا، كما يمتلئ قلبه بالسلام، يمتلئ أيضًا بالشجاعة، ويعلو مسـتواه، كما قال القديس أغسـطينوس: "جلسـت على قمة العالم، حينما أحسست في نفسي أنّي لا أشتهي شيئًا، ولا أخاف شيئًا".

علينا إذًا أن نسـعى نحو الهدف، ونركز كل قلوبنا فيه، ولا نجعل لله

منافسًا في قلوبنا أو شهواتنا، وبالأكثر الذات التي تُضيّع نفسها برغبات لا تُحصى.

آدم كان له الكثير ولكنه أراد أن يكبّر ذاته بأن يصير مثل الله، فأضاع نفسه، وفقد الذي معه. والشيطان نفسه أراد أن يرتفع فوق كل كواكب الله، ويصير مثل العلي، فسقط إلى الهاوية.

أما الذي يركز كل محبته في الرَّب، يشبه ذلك التاجر الحكيم الذي وجد درة غالية الثمن، فباع كل ما له واشتراها (مت١٣). هذه الدرة الثمينة هي الله نفسه.

عليك أن تسأل: ما هو مركز الله في حياتك؟

هل هو هدف ضمن أهداف كثيرة لك؟

أم تراه غير موجود في حياتك على الإطلاق؟ أم هو بالنسبة إليك كل شيء، معه لا تريد شيئًا على الأرض؟

✞✝✞

الضمير ومدى صلاحيته*

كلمتكم عن خطوات كثيرة في الطريق إلى الله. وأريـد أن أكلمكم عن الضمير ومدى صلاحيته وتأثير ذلك على الحياة الروحية.

الضمير

الضمير ليس صوت الله في الإنسان. لأن الضمير يمكن أن يخطئ، وأن ينحرف، وصوت الله لا يمكن أن يخطئ.

الضـمير داخل الإنسـان كالعقل والروح، فالعقل يمكن أن يخطئ، وكذلك الروح وكذلك الضمير.

وتوجد أمثلة كثيرة تُظهر إمكانية خطأ الضمير وانحرافه.

قال السـيد المسـيح لتلاميذه: "تَأْتِي سَـاعَةٌ فِيهَا يَظُنُّ كُلُّ مَنْ يَقْتُلُكُمْ أَنَّهُ يُقَدِّمُ خِدْمَةً لِلهِ"! (يو١٦: ٢)، ولا شك أن الضمائر التي تظن قتل الرسل خدمة لله، هي ضمائر منحرفة.

بنفس الوضـع عُبَاد الأوثان، الذين كانوا يظنون قتل المسـيحيين تطهيرًا

* مقال لقداسة البابا شنوده نُشر في مجلة الكرازة، بتاريخ ٨ سبتمبر ١٩٧٨م

للأرض من كفرهم. ضمائرهم أيضًا كانت ضالة.

مثال ذلك أيضًا: أهل الجاهلية الذين وقعوا في وأد البنات، وأيضًا الناس الذين يوزعون السجائر في الجنازات على ضيوفهم، وضميرهم يتعبهم إذا لم يقدموها!! وكذلك أيضًا الذين يستخدمون الميكرفونات بطريقة تتعب الناس، وتؤذي المريض، وتعطل الطالب عن مذاكرته، وتزعج النائم المحتاج إلى راحة...

إن الضمير قاضي يحب الخير، ولكنه ليس معصومًا من الخطأ. كما أن الخير يختلف مفهومه عند كثيرين. والضمير أيضًا يقع تحت تأثيرات كثيرة، نذكر في مقدمتها:

المعرفة

✞ المعرفة تؤثر على الضمير.

المعرفة السليمة تجعل الضمير يستنير بالفهم، لأنه ما أكثر الذين يخطئون عن جهل، وإذا عرفوا يمتنعون عن الخطأ.

شاول الطرسوسي كان أحد الأتقياء الذين أخطأوا عن جهل... ولذلك نراه يقول: "أَنَا الَّذِي لَسْتُ أَهْلًا لأَنْ أُدْعَى رَسُولًا، لأَنِّي اضْطَهَدْتُ كَنِيسَةَ اللهِ" (١كو١٥:٩)، "وَلكِنَّنِي رُحِمْتُ، لأَنِّي فَعَلْتُ بِجَهْل" (١تي١: ١٣).

ولكن الجهل لا يمنع من أن الخطية خطية.

ونحن نصـــلي في الثلاثة تقديســـات ونطلب من الله أن يصـــفح لنا عن خطايانا التي فعلناها بمعرفة، والتي فعلناها بغير معرفة، وفي العهد القديم كان الذي يفعل خطية ســـهوًا (بجهل): إذا أعلموه بها، يقدم عنها ذبيحة لإثمه لتغفر له (لا٤).

ما أعمق قول الرب: "هَلَكَ شَعْبِي مِنْ عَدَمِ الْمَعْرِفَةِ" (هو٤: ٦).

لهذا أرسل الرَّب الأنبياء والرسل والمعلمين والكهنة والمرشدين، لكي يعرّفوا الناس طريقه، لأن ضـمائرهم لم تعد كافية لإرشـادهم، أو لأن ضـمائرهم قادتهم في طرق خاطئة.

والكتاب المقدس أيضًـا، هو لإنارة الضـمير، ولهذا قال داود: "لو لم تكن شريعتك هي تلاوتي، لهلكت حينئذ في مذلتي" (مز١١٩: ٩٢).

ولأن ضـمير الإنسـان قد لا يكون كافيًا لإرشـاده الروحي، أوجد الله آباء الاعتراف، المرشـــدين الروحيين، لأنـه "تُوجَدُ طَرِيقٌ تَظْهَرُ لِلإِنْسَـــانِ مُسْتَقِيمَةً وَعَاقِبَتُهَا طُرُقُ الْمَوْتِ" (أم١٦: ٢٥).

كما أن الشـــيطان قد يحاول أن يتدخل لكي يرشـــد الإنســـان إلى طريق منحرف، كما فعل مع أمنا حواء في القديم.

المعرفة إذًا تؤثر في الضمير، صالحة كانت أم خاطئة.

المعارف الخاطئة يمكن أن تقود الضمير أيضًا. ألم تكن الفلسفة الأبيقورية المبنية على اللذة تقود ضمائر تابعيها؟ وكذلك الفلسفات الإلحادية، ألم تؤثر على ضمائر مَن اعتنقها، وتحرفه عن طريق الإيمان كله وتؤثر على سلوكه؟

الذين يعترفون بخطاياهم تأثرت ضمائرهم بالإيمان السليم الذي تعلموه. والذين يرفضون الاعتراف من الشيع البروتستانتية تأثروا هم أيضًا بالمعرفة التي تلقنوها ضد الاعتراف.

هناك معلّمون يدعون تلاميذهم إلى الجدية الكاملة، وعدم الضحك إطلاقًا، لأنه ".. بِكَآبَةِ الْوَجْهِ يُصْلَحُ الْقَلْبُ" (جا٧: ٣). ومعلمون آخرون يدعون تلاميذهم إلى البشاشة وحياة الفرح، لأنه ".. لِلْبُكَاءِ وَقْتٌ وَلِلضَّحْكِ وَقْتٌ" (جا٣: ٤). وحسب نوع المعرفة، يتأثر الضمير...

هناك مَن يقولون إن تحديد النسل خاطئ، فيتعب ضمير من يحدد نسله. وآخرون يقولون إنه محلل، فيستريح الضمير بذلك...

لكل هذا، ينبغي وجود وحدة في التعليم في الكنيسة، حتى لا تتبلبل ضمائر الناس بما تسمعه من تعاليم متناقضة...

ولهذا قام التعليم في الكنيسة على التسليم، لكي يحتفظ التعليم بنقاوته، وليحتفظ بوحدته. فقال بولس الرسول: "تَسَلَّمْتُ مِنَ الرَّبِّ مَا سَلَّمْتُكُمْ أَيْضًا.." (١كو١١: ٢٣) وقال لتلميذه تيموثاوس: "وَمَا سَمِعْتَهُ مِنِّي بِشُهُودٍ كَثِيرِينَ، أَوْدِعْهُ أُنَاسًا أُمَنَاءَ.." (٢تي٢:٢).

المعرفة تقود الضمير، لذلك اشترط في الأسقف أن يكون صالحًا للتعليم (١تي٣:٢)، ولذلك أيضًا وبخ السيد المسيح الكتبة والفريسيين لأن تعليمهم كان يضلل ضمائر الناس. ولهذا أيضًا تكلم الكتاب عن "معلمين كذبة" وقال لإسرائيل: ".. مُرْشِدُوكَ مُضِلُّونَ.." (إش٣: ١٢).

إن ضمائر الناس تتأثر بمعرفة ما هو الخير والشر، وتتأثر أيضًا – من جهة الإيمان – بالمعلومات العقائدية.

وربما تكون المعرفة من الكتب، والنبذات، أو من الاجتماعات. ولهذا يحسن أن يدقق الشخص في الكتب التي يطّلع عليها، وفي نوعية الاجتماعات التي يحضرها...

✞ تأثر الضمير بالجماعة...

في وسط الجماعة يتأثر الإنسان بالانفعال وبضمير الجماعة. وقد يقترف أمرًا، إذا خلا إلى نفسه، يوبخه ضميره عليه.

مثل شـاب يندفع وسـط مظاهرة يهتف ويخرّب. فإذا قُبض عليه وأُلقيَ في السـجن، فإنه وهو وحده في هدوء السـجن، يفكر بطريقة أخرى غير هتافه وسط الجماعة. وأيضًـا قد يعبث شاب ويلهو وسط جماعة من أصـدقائه، دون أن يصحو ضميره أو يوبّخه. فإن خلا إلى نفسه، وبّخه.

في وسـط الجماعة صـاحت جموع اليهود: "اصْـلِبْهُ! اصْـلِبْهُ!" (لو٢٣: ٢١)، مخالفين ضمائرهم، أو انسياقًا دون دراية بخطورة ما يفعلون.

ولذلك قال الرَّب على الصـليب: "يَا أَبَتَاهُ، اغْفِرْ لَهُمْ، لأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ" (لو٢٣: ٣٤)، لأن ضميرهم تُعطّله دوامة الجماعة.

وفي وسط الجماعة، قد تقود الضمير الشائعات والإثارات. وقد يصدق ما يقولون ويتصرف متأثرًا بما سمعه.

إن مريم المجدلية مثال واضح لتأثير الجماعة على الضمير.

لقد رأت المسـيح، وأمسكت بقدميه، وسـجدت له (مت ٢٨) وسـمعت منه قوله: "اِذْهَبَا قُولاَ لإِخْوَتِي أَنْ يَذْهَبُوا إِلَى الْجَلِيلِ، وَهُنَاكَ يَرَوْنَنِي" (مت٢٨: ١٠).

ومع ذلك لما اندمجت وسـط الجماعة، وسـمعت الشـائعات التي نشـرها الكهنة عن سـرقة الجسـد المقدس، ذهبت إلى بطرس ويوحنا وقالت لهما:

"أَخَذُوا سَـيِّدِي، وَلَسْـتُ أَعْلَمُ أَيْنَ وَضَـعُوهُ!"، وقالت نفس الكلام للملاك (يو ٢٠).

الضـمير قد يتشـجع إذا أثرت عليه جماعة صـالحة، وقادته إلى الخير. ولكنه قد يتراخى وينام في وسـط جماعة منحلة، أو قد تتغير مبادؤه، ويحكم على الأمور حكمًا مختلفًا. وهذا ما نلاحظه في بعض مَن يتركون بلادهم لمدة طويلة...

ولهذا فإننا نرى ضـمائر السـواح والمتوحدين، تختلف اختلافًا كبيرًا عن ضـمائر العلمانيين، في حسـاسـيتها، وأحكامها، واسـتنارتها، بل قد تختلف عن ضمائر كثير من رهبان المجامع...

على أن هناك ضمائر قوية، قد لا يطغى عليها تيار المجتمع، وإنما هي التي تؤثر فيه. مثال ذلك الأنبياء والمصلحون...

إنهم لم يتأثروا بفسـاد جيلهم، بل تولوا قيادته، وغيّروه إلى أفضـل. ولكن ليس كل إنسان أقوى من الجماعة...

هؤلاء الأقوياء يتصفون بالصلابة والصمود وعدم الانقياد. إنهم يُذكّرونني بالجنادل السـتة التي اعترضـت مجرى النيل، ولم تؤثر فيها كل تياراته ومياهه وأمواجه مدى آلاف السنين...

الضمير يتأثر بالقادة

الضمير أيضًا يتأثر بالقادة والمرشدين والمعلمين والمشهورين والآباء.

وكثيرًا ما نجد إنسانًا صورة طبق الأصل من أبيه الروحي أو الجسدي، في أسلوبه، في أفكاره، في طباعه، بل حتى في حركاته. يعتنق كل مبادئه، ويتأثر بها ضميره، وتصير جزءًا من طبعه، وبخاصة بالنسبة إلى المبتدئين، والذين في فترة تكوين مثالياتهم.

ولكني أعرف إنسانًا قديسًا، وقف ضد هذا التيار...

إنه بولس الرسول، الذي وقف ضد بطرس الرسول أحد الثلاثة المعتبرين أعمدة في الكنيسة (بطرس ويعقوب ويوحنا). وأحد الذين وضعوا عليه اليد وأرسلوه للخدمة (أع١٣: ٣). ومع ذلك لما تصرف القديس بطرس تصرفًا يلام عليه، قال القديس بولس: "قَاوَمْتُهُ مُواجَهَةً، لأَنَّهُ كَانَ مَلُومًا" (غلا٢: ١١). وقال له: "إِنْ كُنْتَ وَأَنْتَ يَهُودِيٌّ تَعِيشُ أُمَمِيًّا لاَ يَهُودِيًّا، فَلِمَاذَا تُلْزِمُ الأُمَمَ أَنْ يَتَهَوَّدُوا؟" (غلا٢: ١٤).

هذا هو تصرف الضمير صاحب المبادئ، الراسخ في معرفته للحق والخير، الذي لا تغير موازينه تصرفات الناس الكبار...

الضمير تؤثر عليه الرغبات

الرغبات والعواطف، حبًا كانت أم كرهًا، تؤثر على الضـــمير في أحكامه وفي سلوكه، إذ يندر أن يوجد مَن يحكم في شيء حكمًا مجردًا تمامًا عن الرغبات وعن العواطف.

يقع إنسان في مشكلة، يرى أنها لا تُحل إلا بالكذب، فتراه يسمي الكذب ذكاءً أو دهاءً، وإن أدان تصرفه، فإنه يخفف حكمه عليه جدًا، ويلتمس له ألف عذر، ولا يشتد بنفس الشدة التي يحكم بها على تصرفات الآخرين. وقد يسمي البعض الكذب "بالكذب الأبيض"، أو يسميه مزاحًا.

وقد يحب إنسانًا، فيدافع عن كل تصرفاته، مهما كانت خاطئة، دون أن يتعبه ضـــميره! بل قد يتعبه ضـــميره إن لم يدافع! ويســـمّي هذا الدفاع الخاطئ لونًا من الوفاء أو الواجب. وربما يدعو غيره أن يسـلك مسـلكه، ويتكلم بحماس شديد وانفعال، يتعطل معهما عمل الضمير، وينسى قول الكتاب: **"مُبَرِّئُ الْمُذْنِبَ وَمُذَنِّبُ الْبَرِيءِ كِلاَهُمَا مَكْرَهَةٌ الرَّبِّ" (أم١٧:١٥)**. إن الذي يبرّئ المذنب، هو إنسان ضد الحق، وضد العدل. ولا يستطيع أن يعتذر عن هذا، بالعطف أو الرحمة، إذ يمكنه أن يعترف بأن هناك ذنبًا، ثم يطلب لهذا الذنب العطف والرحمة أما تبرئة الذنب، فهي اختلال في الضمير...

الضمير والإرادة*

تكلمنا عن الضمير وعدم عصمته، والمؤثرات التي تقع عليه من المعرفة، والبيئة، والإرشاد، والقيادة، والتقاليد. ونتكلم عن "**الضمير والإرادة**"...

الضمير كأي جهاز من أجهزة الإنسان، يمكن أن يضعف وأن يقوى، يمكن أن يستنير بالروح القدس وبأقوال الآباء والوعظ والتعليم وبالحياة الروحية... كما أنه يمكن أن يضعف وأن ينام، وتطغى عليه المصلحة، وتطغى عليه الإرادة.

ما أسهل أن يختل الضمير، وتتغير أحكامه، وتنقلب موازينه، كالمدرس الذي يدفعه ضميره إلى تغشيش تلميذ، أو كالطبيب الذي شفقة على امرأة يجهضها، أو يعمل عملية ليستر فتاة فقدت بكارتها، أو يكتب شهادة مرضية لغير مريض ليساعده... أو كالأم التي تستر على أولادها لكي تنقذهم من عقوبة أبيهم، فتغطي أخطاءهم بأكاذيب...

والعجيب في كل هؤلاء أن ضمائرهم لا تتعبهم ولا تبكّتهم. بل على العكس يشعرون أنهم عملوا شيئًا حسنًا، يُفرح قلوبهم...

* مقال لقداسة البابا شنوده نُشر في مجلة الكرازة، بتاريخ ١٥ سبتمبر ١٩٧٨م

إن عدم تبكيت الضـمير على الخطأ، يدل على خلل فيه. أما كونه يفرح بالخطأ، فهذا يدل على انقلاب في كل موازينه!!

إن الضمير يمكن أن يتشكل حسب مبادئ الإنسان ومثالياته. ويتغير تبعًا لتغير هذه المثاليات. لهذا لا يكون حكمه سـليمًا باسـتمرار، ولهذا تختلف وتتنوع ضـــمائر الناس. فما يراه أحدهم صـــوابًا يراه غيره شـــرًا، والعكس بالعكس.

✞ والعواطف قد تتدخل في أحكام الضمائر وتكييفها.

فالذي يحب إنسـانًا، قد يكذب ويبالغ في مديحه، وهو مسـتريح القلب. وقد يكذب كثيرًا لإنقاذه من ورطة، وضـميره المريض يشـجعه، على اعتبار أنه يؤدي خدمة لصديق... وبالتالي ما أسهل أن يقع كثيرون في مبدأ (الغاية تبرر الوسـيلة). وتقبل ضـمائرهم وسـائل كثيرة خاطئة، بحجة أن الغرض نبيل!!

الضـــمير قد يمرض من جهة أحكامه، ومن جهة عواطفه، فلا يُبكّت في حالات تسـتحق التبكيت، أو يوبخ بأسـلوب هادئ جدًا في أمور خطيرة. وقد قال البعض: "إنَّ الضمير قاض عادل، ولكنه ضعيف. وضعفه واقف في ســـبيل تنفيذ أحكامه". ولكن الصـــعوبة الكبرى أن يكون الضـــمير

ضعيفًا، وفي نفس الوقت يكون أيضًا غير عادل!

لذلك لا تعتمد على ضـــميرك وحده. بل الجأ إلى تحكيم ضـــمائر أخرى سليمة ومحايدة، بعيدة عن تأثر الأغراض والبيئة والقيادة...

فالإرشاد الروحي هو ضمير واحد، يُقَوم مسيرة ضمير المعترف. وكما قال الكتاب: "تُوجَدُ طَرِيقٌ تَظْهَرُ لِلإِنْسَـــانِ مُسْـــتَقِيمَةً وَعَاقِبَتُهَا طُرُقُ الْمَوْتِ" (أم١٦: ٢٥).

هناك ضمير واسع يبلع الجمل، وضمير ضيق يُصَفّ عن البعوضة.

الضـمير الواسـع يمكن أن يجد تبريرًا لأخطاء كثيرة. أما الضـمير الضـيق فهو ضـمير موسـوس، يظن الشـر حيث لا يوجد شـر، ويضـخم من قيمة الأخطاء، ويقع في (عقدة الذنب)، ويرى نفسـه مسئولًا عن أمور لا علاقة لـه بها إطلاقًا، وتملكه الكآبة أحيانًا واليأس، ويظن أنه لا فائدة من كل جهاده، وأنه هالك، وقد وقع في التجديف على الروح القدس!!

أما الضـمير السـليم فإنه يشـبه ميزان الصـيدلي، الزيادة فيه تضـر، والنقص يضـــر. وما أجمل قول الكتاب: "مُبَرِّئُ الْمُذْنِبَ وَمُذَنِّبُ الْبَرِيءَ كِلاَهُمَا مَكْرَهَةُ الرَّبِّ" (أم١٧:١٥). فلا تحسبها فضيلة منك أن تدافع عن مذنب بمحاولة إثبات أنه لم يذنب!! الحق هو الحق. أما طلب الرأفة فلا

يمنع الاعتراف بأن هناك خطأ...

وإلاَّ نكون قد فقدنا التمييز بين الخير والشـــر، بحجة عدم الوقوع في الإدانة، أو لمجرد الرأفة على المخطئين!

والضمير في طريقه، قد يصطدم بأمور عديدة، أولها الإرادة.

فإذا مالت الإرادة نحو الخطية، وأرادت تنفيذها، وحاول الضـــمير منعها، فإنها تعمل على إسكات هذا الضمير أو الهروب من صوته. ويقوم صراع بين الضـمير والإرادة: إما أن ينتصـر فيه الضـمير، وإما أن تنتصـر فيه الإرادة، وتنفذ الخطأ.

إن الضـــمير هو مجرد صـــوت يوجه الإرادة نحو الخير، ويبعدها عن الشر. ولكنه لا يملك أن يرغمها...

يكفي أن يكون مجرد صوت، يصيح باستمرار في عقل الإنسان وفي قلبه: إن هذا الأمر خطأ، فيشهد للحق...

يوحنا المعمدان لم يرغم هيرودس على الخير، بل كان مجرد صـــوت يصـيح في وجهه، أنه لا يحل لك أن تأخذ امرأة أخيك زوجة. ولم يسـمع هيرودس للمعمدان، ولكن ذلك النبي العظيم ظلّ ضـــميرًا للشـــعب كله، يصيح في وجه الملك الفاسد: لا يحل لك.

والإرادة قد تحاول إسكات الضمير، بحجة سلامها النفسي!

إنها لا تريد أن يكون هذا الضـــمير ســـببًا في تعكير صـــفوها الداخلي، فيفقدها سلامها ويتعب نفسيتها. لذلك تسكته.

هذه الإرادة المريضة يهمها راحة النفس، وليس راحة الروح، فالروح تستريح في طاعة الرب وفي نقاوة القلب، وترحب في هذا بالتوبيخ، بعكس النفس التي يتعبها التوبيخ...

وقد تهرب الإرادة من الضمير، ولا تعطيه فرصة...

تهرب من محاســـبة النفس، وتهرب من توبيخ الضـــمير، بالمشـــغولية المســتمرة. وإن أتاها صــوت الضــمير من مصــدر خارجي، من أب أو صديق أو معلم، تحاول أن تغير مجرى الحديث، إلى موضوع آخر، لأن صوت الضمير يتعبها، فتهرب منه.

وقد يجد الضمير أنه لا مجال له، فيستكين ويصمت.. وبمضي الوقت يتعود الصمت، ولا يتدخل في أعمال الإرادة...

وتبقى الإرادة وحدها في الميدان، تعمل ما تشـــاء، وتتفرغ لرغباتها، ولا تعطي فرصــة للضــمير.. فيصــبح ضــميرًا غائبًا، أو ضــميرًا مســتترًا، أو ضميرًا نائمًا، ويتعطل عمله في الإرشاد.

وتساعد الضمير على السكوت، وسائل التسلية المتعددة، ووسائل الترفيه، وطغيان لذة الخطية، والمشغولية المستمرة، وعدم جدوى التوبيخ، ويأس الضمير من إمكانية العمل، أو الوعد المستمر بتأجيل التوبة. **وهكذا يبدو أمام الضمير أنه لا فائدة، وتنتصر الإرادة على الضمير، وتبقى في الخطية. لأن الضمير مجرد مرشد، لا يرغم الإرادة على قبول مشورته.**

الضمير مثل إشارات المرور في الطريق، قد تضيء باللون الأحمر لكي يقف السائق، ولكنها لا ترغمه على الوقوف!

ما أسهل أن يخالف السائق إشارة المرور الحمراء، ويستمر في سيره، وتكتب له مخالفة، ولا يبالي...

إن الضمير مجرد مرشد، أما التنفيذ ففي يد الإرادة.

فهل إذا انحرفت الإرادة، وأسكتت الضمير، يهلك الإنسان؟

هنا تتدخل إرادة الله، ويرسل نعمته، ليخلص الإنسان من إرادته...

ما دام ضمير الإنسان ضعيفًا، والإرادة المنحرفة مسيطرة، إذًا لا بد من قوة خارجية تتدخل لإنقاذه. هنا يدخل عمل روح الله القدوس، وهنا تظهر ثمار صلوات الملائكة والقديسين، وتعمل النعمة، لكي توقظ الإنسان الغافل، وتلين قلبه القاسي...

مثال ذلك ما حدث لمريم القبطية، وهي في عمق الخطية، لا تفكر إطلاقًا في التوبة، بل تشتاق إلى خطايا جديدة، يسقط فيها كثيرين.

ولكن النعمة اجتذبتها في مدينة القدس، وسرعان ما استجابت لعمل النعمة، وتابت، بل صارت قديسة عظيمة، استحقت أن تبارك القس زوسيما...

النعمة قد تتدخل وحدها، بافتقاد من روح الله القدوس. أو تتدخل بناء على صلاة تطلب معونة الله.

وقد تكون الصلاة من شخص الخاطئ نفسه، يصرخ إلى الله قائلًا: "تَوِّبْنِي فَأَتُوبَ" (إر ٣١: ١٨). وربما تكون من أحبائه المحيطين به، المصلين من أجل خلاصه. وقد تكون الصلاة من أرواح الملائكة القديسين أو أرواح الذين انتقلوا.

إذًا الأمر يحتاج منا إلى صلوات لتتدخل المعونة الإلهية.

إن الناس لا تنقذها مجرد العظات. فالعظات قد تحرك الضمير، وربما مع ذلك لا تتحرك الإرادة نحو الخير!

نحن محتاجون إلى قلوب تنسكب أمام الله في الصلاة، لكي يعمل في الخطاة، ويجذبهم إلى طريقه.

فالرسول يقول: "الإِرَادَةَ حَاضِرَةٌ عِنْدِي، وَأَمَّا أَنْ أَفْعَلَ الْحُسْنَى فَلَسْتُ أَجِدُ. لأَنِّي لَسْتُ أَفْعَلُ الصَّالِحَ الَّذِي أُرِيدُهُ، بَلِ الشَّرَّ الَّذِي لَسْتُ أُرِيدُهُ فَإِيَّاهُ أَفْعَلُ" (رو٧: ١٨، ١٩).

هناك عبارة جميلة وردت في سفر زكريا النبي عن يهوشع الذي كان واقفًا بملابس قذرة، والشيطان قائم عن يمينه ليقاومه. فجاء واحد من طغمة الأرباب، وقال للشيطان: "لِيَنْتَهِرْكَ الرَّبُّ يَا شَيْطَانُ! لِيَنْتَهِرْكَ الرَّبُّ. أَفَلَيْسَ هذَا شُعْلَةً مُنْتَشَلَةً مِنَ النَّارِ؟" (زك٣: ٢). وأنقذ الرب يهوشع.

ومع تدخل النعمة، يبقى الإنسان أيضًا حرًا... يستجيب للنعمة، أو لا يستجيب. يفتح للرب الذي يقرع على بابه. يقبل عمل الروح، أو يُحزن الروح. أو يُطفئ حرارة الروح، أو يقاوم الروح!!

الإرادة كيف تقوى وكيف تضعف؟*

كلمتكم عن الضمير، ونواحي القوة والضعف التي يتعرض لها. وأحب أن أكلمكم عن الإرادة، ومركزها بالنسبة إلى الإنسان، وكيف تقوى وكيف تضعف؟

هناك كثيرون يقولون إنهم يحبون الخير، ولكنهم عاجزون عن عمله، ولسان حالهم قول الرسول: "وَأَمَّا أَنْ أَفْعَلَ الْحُسْنَى فَلَسْتُ أَجِدُ. لأَنِّي لَسْتُ أَفْعَلُ الصَّالِحَ الَّذِي أُرِيدُهُ، بَلِ الشَّرَّ الَّذِي لَسْتُ أُرِيدُهُ فَإِيَّاهُ أَفْعَلُ" (رو٧: ١٨، ١٩). ويعللون ذلك بأن إرادتهم ضعيفة.

وهنا نبحث الموضوع من النقاط الآتية:

١- هل تستطيع أن تقاوم الخطية أم أنت تضعف أمامها؟

٢- هل بسهولة تقدر أن تعمل الخير أم بتغصب؟

٣- عندما تكون إرادتك ضعيفة، هل تبذل جهدك لتقويتها؟

٤- هل الإرادة ضعيفة أصلاً، أم بسبب إهمالك الروحي؟

إن أصل إرادة الإنسان ميالة للخير، كصورة الله. لذلك فإن ضعف الإرادة

* مقال لقداسة البابا شنوده نُشر في مجلة الكرازة، بتاريخ ٢٧ أكتوبر ١٩٧٨م

وعدم قدرتها على الخير، أمر دخيل على الإنسان.

الميل إلى الخير هو الأصـــل في الإنســـان. أما الميل إلى الشـــر، فأمر دخيل عليه، لا بد أن نبحث عن أسبابه...

بإمكان الإنسـان – وبخاصـة في نعم العهد الجديد – أن يسـير في طريق الرب. فما الذي يدفعه إذًا إلى الخطية؟

حواء مثلاً: عندما خلقها الله، لم تكن فيها خطية ولكنها أخطأت حينما اشتهت. وكيف اشتهت؟ حدث ذلك لما أدخل الشيطان إلى قلبها الشك، والشهوة أن تصير مثل الله...

وبالشهوة ضعفت الإرادة. وحينئذ عجزت عن المقاومة، فأخطأت.

حينما تدخل الشـــهوة إلى القلب تضـــعف الإرادة. وكلما ازدادت الشـــهوة، ضـــغطت على الإرادة بشـــدة... لذلك فمن عوامل تقوية الإرادة، معالجة الشهوة وطردها من القلب.

ومما يضعف الإرادة ويقوي الشهوة، القرب من مادة الخطية.

قال أحد الآباء: وأنت بعيد عن مادة الخطية، قد تحارب من الداخل فقط. أما وأنت قريب من مادة الخطية، فإنه تقوم عليك حربان: أحدهما من الداخل، والأخرى من الخارج.

لذلك على الإنسان الحكيم أن يبعد عن العثرات وعن كل أسباب الخطية، لكيلا تضعف إرادته أمام العثرات.

ومن ضمن هذه الأسباب البعد عن المعاشرات الرديئة، التي قال الكتاب إنها: "..تُفْسِدُ الأَخْلاَقَ الْجَيِّدَةَ" (١كو١٥: ٣٣).

مما يضعف الإرادة أيضًا عنصر المُدة، والاستدامة...

إن حاربتك الخطية، فقاومتها للتو، ولم تستبْقِها، تجد إرادتك قوية، قادرة على طرد الخطية. أما إن تركتها ترعى في قلبك، وتدغدغ حواسك، وتلعب بعواطفك، وتغري نفسك، وتقنع عقلك، فإنها بطول المدة تقوى عليك، وتضعف إرادتك عن مقاومتها. وإن انتصرت يكون ذلك بمجهود كبير وبتدخل النعمة...

فرق كبير بين أن تنزع الخطية وهي عشب في الأرض، أو أن تحاول نزعها بعد أن تتأصل جذورها ويرتفع جذعها عاليًا في الهواء. ولهذا حسنًا قال المزمور: "طُوبَى لِمَنْ يُمْسِكُ أَطْفَالَكِ وَيَضْرِبُ بِهِمُ الصَّخْرَةَ!" (مز١٣٧: ٩) والصخرة كانت المسيح.

إن أتاك فكر خاطئ، وطردته بسرعة، تكون إرادتك قوية.

أما إن أخذت مع الفكر وأعطيت، واستمر الفكر فترة في ذهنك، فحينئذ

يكون طرده بصعوبة.

لهذا فالسرعة لازمة. والبُطء يساعد على إضعاف الإرادة.

حسنًا أن يوسف الصديق هرب بسرعة من وجه الخطية. وكذلك الابن الضال لم يبطئ في تقديم التوبة، وإنما قال: "أَقُومُ وَأَذْهَبُ إِلَى أَبِي" (لو١٥: ١٨)، وقام لتوّه وذهب.

وإبراهيم أبو الآباء لما أتاه الأمر أن يقدم ابنه الوحيد محرقة، لم يتباطأ ولم يعط للأفكار فرصة لمحاربته، بل بإرادة قوية. **بكّر صباحًا جدًا، وأخذ الحطب والسكين** (تك٢٢: ٣).

كذلك أنت إن تباطأت في دفع عشورك، قد تضعف إرادتك عن دفعها، وتعطي فرصة للشيطان يخترع فيها معوِّقات...

لما تباطأ (لوط) في الخروج من سدوم، دفعه الملاكان، وأمراه بالإسراع. وزكا، قال له المسيح: "**أَسْرِعْ** وَانْزِلْ" (لو١٩: ٥).

إنها دَفعة من النعمة، أسرع في الانتفاع بها وأنت ميّال للخير، قبل أن يتدخل الشيطان ويضعف إرادتك بأسبابه. أية علاقة آثمة، أو أية مادة رديئة، أو أية خطية، غالبًا كانت الإرادة قوية في أولها، وكانت تقدر على التخلص منها ولكن بمرور الوقت، بدأت تضعف.

في قصـــة قايين قال له الله: "فَعِنْدَ الْبَابِ خَطِيَّةٌ رَابِضَـــةٌ... وَأَنْتَ تَسُـــودُ عَلَيْهَا" (تك٤: ٧). فلما استمرت داخله، أصبحت هي التي تسود عليه.

إن محاربات الخطية تحتاج إلى عمل حاســم للتخلص منها، لأن التراخي والتباطؤ والتكاسل، يعطي فرصة لإضعاف الإرادة. إن شمشون لما طالت المدة في إلحاح الخطية عليه، ضعف أخيرًا.

إن الإنسـان عبارة عن مجموعة من الأجهزة الحساسـة. كل شـيء يؤثر عليها بالخير أو الشر، ويزيد التأثير بالمدة...

تؤثر عليه الأفكار، والحواس، والمشـــاعر الداخلية، والأســـباب الخارجية، البيئة، والمعاشرات، والسماعات... إلخ.

كثيرًا ما تضـــعف إرادتنا، لأننا لم نكن حازمين وحاســـمين في معالجة الأسباب التي تضعف الإرادة...

بســـبب تهاوننا وتراخينا، نفقد قوتنا ونقف موقف الضـــعف. فليتنا نكون متيقظين باستمرار وساهرين على خلاص نفوسنا...

✞ من الأسباب التي تُضعف إرادتنا أيضًا، البعد عن وسائط النعمة...

لأنه طالما نحاط بجو روحي، تكون إرادتنا قوية.

هناك عوامل روحية كالصـــلاة والتأمل والقراءة الروحية والاجتماعات الروحية، والمداومة على التناول والاعتراف، والتأثر بالصـداقات الروحية، كلها تلهب القلب بمحبة الله، وتقوي الإرادة في الالتصـــاق بالرب، وتعطي مناعة أثناء مقاومة الخطية.

ولكن إذا بعد الإنسان عن الوسائط الروحية، تضعف روحياته، ويقل ميله نحو الخير، وتصير إرادته سهلة الانجذاب نحو الخطية. وينتهز الشيطان الفرصـة فيضـربها، وليس حولها سـلاح روحي يقوّي عزيمتها في مقاومته، إذ تبعد عن الهاتف الداخلي الذي يدعوها إلى الله.

انظروا إلى لوط، لقد كانت نفسـه البارة تتعذب كل يوم في سـدوم لأنه فقد واسطتين روحيتين: عشرة إبراهيم القديس، والوجود إلى جوار المذبح...

ســـدوم لم يكن فيها المذبح ولا إبراهيم، لذلك ضـــعفت إرادة امرأة لوط وهلكت، وضـعفت إرادة ابنتيه ووقعتا في الخطية. ولوط نفسـه لم يعد في قوته الأولى.

لأهمية الوســائط الروحية في تقوية الإرادة، يقول الكتاب عن الرجل البار إنه: "يَكُونُ كَشَـجَرَةٍ مَغْرُوسَـةٍ عِنْدَ مَجَارِي الْمِيَاهِ" (مز ١: ٣) أي متصـلة

بينابيع الغذاء الروحي باستمرار، لذلك تكون قوية ومثمرة على الدوام.

إذًا الإرادة يمكن أن تقوى وأن تضعف. إن منحتها أسباب القوة تقوى. وإن عرّضتها لعوامل الضعف تضعف.

بطرس وهو موجود في جو روحي مع السيد ومع التلاميذ، امتلأ بالقوة التي قال بها: "وَإِنْ شَكَّ فِيكَ الْجَمِيعُ فَأَنَا لاَ أَشُكُّ أَبَدًا"، "وَلَوِ اضْطُرِرْتُ أَنْ أَمُوتَ مَعَكَ لاَ أُنْكِرُكَ" (مت٢٦: ٣٣-٣٥) ولو أدّى الأمر أن أموت معك! ولكن بطرس نفسه، وهو في وسط آخر مع جواري وعبيد رئيس الكهنة، ضعفت إرادته، فسبّ ولعن وقال: "إِنِّي لاَ أَعْرِفُ الرَّجُلَ" (مت٢٦: ٧٤)! **وأنت ما هو الوسط الذي يحيط بك؟ وهل يقوي إرادتك أم يضعفها؟**

هل عوامل التسلية والترفيه التي تحيط بك تقوي إرادتك نحو الخير؟ وتعطيك مقاومة للخطية؟ أم العكس؟ هل أصدقاؤك ومعارفك وأصحابك الذين تقضي معهم وقتك، يشجعونك على الالتصاق بالله.

✞ مسألة أخرى تؤثر على الإرادة وهي عامل التدرج.

إنَّ الخطية قد لا تحاربك دفعة واحدة بوجه مكشوف، بل قد تتدرج معك تدرجًا طويلًا لا تشعر به حتى تقع في الهوّة! وربما تكون الخطوة الأولى التي تقودك إلى الخطية، ليست في حد ذاتها خطية واضحة... وبهذا

التدرج تسلب إرادتك شيئًا فشيئًا دون أن تحس!

✞ من ضمن الأشياء التي تضعف الإرادة وتقويها، الفكر...

إن كانت أفكارك متعلقة بالله باســـتمرار، وبالعمل الروحي، تجد إرادتك قوية، مســـتعدة كل حين لعمل الخير. أما إذا انشـــغل فكرك بالمحاربات الشـــيطانية، أو حتى بالأمور العالمية والمادية، أو ظل فكرك متغربًا عن الله مدة طويلة، فحينئذ لا تكون إرادتك في نفس القوة التي تســاعدها على المقاومة.

✞ من العوامل الأخرى التي لها تأثير على الإرادة: التغصب.

هل أنت باســـتمرار تدلل نفســـك، وتعطيها ما تهواه؟ أم أنت تقف بحزم وتغصب نفسك على العمل الروحي؟ ولا تطاوع رغباتك في كل شيء؟ إن كنت باستمرار تجاهد نفسك، ستقوى إرادتك بلا شك. أما إن قادتك الرغبة وحب الراحة وإطاعة الهوى، فإن إرادتك ستفقد كل سيطرتها...

إن أعطيت نفســـك هواها، فأين إذًا الالتزام؟ وأين المبادئ والقيم؟ وأين قوة الإرادة.

المسألة تحتاج إلى جدية، وإلى الانتصار على العقبات...

الإنســـان الجاد في حياته الروحية لا يتراخى ولا يتراجع، ولا يفشـــل ولا

ييأس، ولا يعترف بعقبات، وإنما يبذل جهده للانتصـــار على كل عقبة تصـــادفه. داود أمام جليات كانت تقف أمامه عقبات تدعو إلى اليأس، لكنه بالإيمان تصدى لها وانتصر.

✞ أهم نقطة أقولها في موضـــوع الإرادة هي محبة الله. وأيضًـــا عمل النعمة في القلب.

إن ملكت محبة الله على القلب، ستملك الإرادة أيضًا، والمحبة تقود الإرادة إلى الخير. وحتى إن ضـعفت الإرادة تقودها النعمة، بإلقاء النفس أمام الله طلبًا للمعونة.

النسيان*

من الأشـياء التي تقود الإنسـان إلى الخطية، أو تشـجعه على الخطية، النسـيان. كما قال أحد القديسـين: تسـبق الخطية إما الشـهوة وإما التهاون وإما النسيان.

النسيان

وذلك بأن ينسى الإنسان وجود الله، وعدل الله، ومعرفة الله، ومحبة الله له، وإحسـاناته إليه. أو ينسـى الموت أو الأبدية، أو ينسـى أن الخطية موت وعاقبتها موت.

لو تذكر الإنسـان أن الله موجود، أمامه، يراه، وينظر إليه، ويقرأ فكره وقلبه، ما أمكنه أن يخطئ... كما قال يوسـف الصـديق: "فَكَيْفَ أَصْـنَعُ هذَا الشَّـرَّ الْعَظِيمَ وَأُخْطِئُ إِلَى اللهِ؟" (تك٣٩: ٩). إن شـعوره بأنه أمام الله الذي يراه، منعه من فعل الشـر... ولكننا كثيرًا ما ننسـى وجود الله، وأنه أمامنا، يرانا.

الإنسان الذي يخطئ، لا ينسى فقط رؤية الله له، وإنما ينسى أيضًا عدل

* مقال لقداسة البابا شنوده نُشر في مجلة الكرازة، بتاريخ ٢٢ سبتمبر ١٩٧٨م

الله وقصاصه، وصلاح الله الذي يكره الخطية.

كثيرون يتذكرون فقط محبة الله، وينسون عدله... وإذ ينسون عدل الله يتهاونون مع الخطية.

إن عدل الله يقتضي أخذ ثمن الخطية، وأجرة الخطية موت، إن لم تؤخذ من الخاطئ، تؤخذ من المسيح. إذًا معنى الخطية أننا نلقي بنجاساتنا على المسيح لكي يحملها!! لو تذكر الإنسان هذا. ما أخطأ. ولكنه ينسى...

الإنسان الذي يخطئ ينسى الأبدية والدينونة، ولا يذكر إلا لحظته فقط. إنه ينسى ذلك اليوم الرهيب الذي يقف فيه أمام الديان العادل، ليعطي حسابًا كاملًا.

كان الله قديمًا يتركنا إلى الشريعة الأدبية التي في أعماقنا لترشدنا، قبل أن يعطينا وصية مكتوبة، ولهذا نرى قايين خاف من جريمته (القتل) وأنكرها، قبل أن توجد وصية مكتوبة تقول: "لاَ تَقْتُلْ" (خر ٢٠: ١٣). ويوسف رفض أن يزني قبل أن توجد وصية مكتوبة تقول: "لاَ تَزْنِ" (خر ٢٠: ١٤).

ثم أعطانا الله وصايا مكتوبة لكيلا ننسى...

وهذه الوصـــايا أمرنا أن نلهج فيها النهار والليل "وَفِي نَامُوسِـــهِ يَلْهَجُ نَهَارًا وَلَيْلًا" (مز ١: ٢) لكيلا ننسى.

بل قال لنا عنها: "وَتَكَلَّمْ بِهَا حِينَ تَجْلِسُ فِي بَيْتِكَ، وَحِينَ تَمْشِـــي فِي الطَّرِيقِ، وَحِينَ تَنَـامُ وَحِينَ تَقُومُ، وَارْبُطْهَـا عَلاَمَـةً عَلَى يَـدِكَ، وَلْتَكُنْ عَصَـائِبَ بَيْنَ عَيْنَيْكَ، وَاكْتُبْهَا عَلَى قَوَائِمِ أَبْوَابِ بَيْتِكَ وَعَلَى أَبْوَابِكَ" (تث٦: ٦-٩). كل ذلك لكيلا ننساها.

وأمر الله أن تقرأ هذه الشريعة في المجامع كل سبت.

وذلك حتى لا ينساها الشعب. وأحاط طاعتها بالبركات ومخالفتها باللعنات (تث٢٨) وكانت هذه البركات واللعنات تُتلى على الشـــعب كله، من على جبلين، حتى لا ينساها.

وما زلنا في الكنائس نقرأ هذه الشريعة في كل قداس...

وذلك حتى لا ينســاها الشــعب. وأصــبح تفســير هذه الشــريعة هو عمل الأنبياء والرسل والرعاة والوعاظ وكل رجال الكهنوت... وكرر الله الشريعة في سـفر التثنية وقال للشـعب: **"اِحْتَرِزُوا مِنْ أَنْ تَنْسَـوْا عَهْدَ الرَّبِّ إِلهِكُمُ الَّذِي قَطَعَهُ مَعَكُمْ" (تث٤: ٢٣).**

وكان الدخول في شـعب الله قديمًا، علامته الختان. وهي علامة في جسم

الإنسان، لكيلا ينسى أن جسد الخطية قد قُطع عنه ومات، وأصبح لا يعيش حسب الجسد.

وبنفس الوضع صارت المعمودية في العهد الجديد، التي تذكرنا بأننا قد متنا مع المسيح "مَدْفُونِينَ مَعَهُ فِي الْمَعْمُودِيَّةِ" (كو٢: ١٢).

ولكن الخاطئ ينسى دائمًا العهد الذي قطعه مع الله في المعمودية حينما جحد الشيطان وكل قواته الردية، وكل نفاقه وحيله. وينسى أن إنسانه العتيق قد مات، وأنه "كُلَّكُمُ الَّذِينَ اعْتَمَدْتُمْ بِالْمَسِيحِ قَدْ لَبِسْتُمُ الْمَسِيحَ" (غلا٣: ٢٧).

الخاطئ ينسى أنه قد لبس المسيح، وينسى أنه صورة الله...

نعم، إنه صعب جدًا على شخص يذكر أنه قد لبس المسيح، ثم يخطئ. ومن الصعب أيضًا أن يذكر إنسان أنه صورة الله ومثاله، ثم يخطئ، وهو على شبه الله!

مَن يستطيع أن يخطئ إذا تذكر أن أعضاءه هي أعضاء المسيح!؟ إنه يقول مع الرسول: "أَفَآخُذُ أَعْضَاءَ الْمَسِيحِ وَأَجْعَلُهَا أَعْضَاءَ زَانِيَةٍ؟ حَاشَا!" (١كو٦: ١٥).

مَن أيضًـــا يجرؤ أن يخطئ إن تذكر أنه هيكل لروح الله القدوس، وروح الله ساكن فيه (١كو٦: ١٩).

ولكننا نخطئ حينما ننسى كل هذا. لذلك يذكرنا الرَّب.

إننا نخطئ لأننا ننســـى أننا هياكل الله، وأننا أبناء لله، وأننا صـــورة الله ومثاله. وفي خطيتنا لا نكون صـــورته.. لذلك انظروا ماذا يقول بطرس الرســـول لكي يذكرنا: **"لِذلِكَ لاَ أُهْمِلُ أَنْ أُذَكِّرَكُمْ دَائِمًا بِهذِهِ الأُمُورِ... أَحْسِـبُهُ حَقًّا مَا دُمْتُ فِي هذَا الْمَسْـكَنِ أَنْ أُنْهِضَـكُمْ بِالتَّذْكِرَةِ" (٢بط١: ١٢، ١٣).**

✞ الكنيسة أيضًا تقيم الأعياد والمناسبات والطقوس كلها لتذكيرنا...

نحن نعيد لميلاد المســـيح مثلًا، لا لمجرد الفرح، وإنما لنتذكر أن ميلاد المسيح كان بداية قصة خلاصنا، ونهتف مع سمعان الشيخ: "لأَنَّ عَيْنَيَّ قَدْ أَبْصَـرَتَا خَلاَصَـكَ" (لو٢: ٣٠) ونفرح بهذا الخلاص. ولا تكون أفراح الكريسماس فرحًا عالميًا!

وكذلك نحن حينما نفرح بقيامة المســـيح، إنما نفرح بالانتصـــار على الموت الذي جلبته الخطية. نتذكر هذا فتتعزى قلوبنا.

✞ وهكذا أيضًا كل طقوس الكنيسة إنما هي لتذكيرنا.

نحن ننظر إلى الشموع. فنتذكر أننا نور العالم، ونتذكر القديسين الذين كانوا كالشموع يذوبون لكي يضيئوا الطريق للآخرين.

وننظر إلى البخور فنتذكر أن الصلوات تصعد إلى فوق برائحة زكية كالبخور.

وننظر إلى صور القديسين وأيقوناتهم فنتذكر حياتهم الطاهرة المقدسة لكيما تكون لنا مثالًا... وكذلك حينما نسمع السنكسار، إنما نتذكر تلك السير الجميلة، لتعليمنا.

انظروا ما الذي تفعله الكنيسة لكي تذكرنا دائمًا بآلام المسيح.

أسبوع كل سنة يسمى أسبوع الآلام أو أسبوع البصخة، تجلَّل فيه الكنيسة بالسواد، ويقف المؤمنون خارج الهيكل، خارج خورس القديسين، كما كان المسيح خارج المحلة. وتتلى جميع النبوات الخاصة بالآلام، وجميع أحداث هذا الأسبوع، وتقال الألحان كلها بنغمات الحزن. وماذا أيضًا؟

ترى الكنيسة أن هذا التذكار السنوي لا يكفي، فتقيم لنا تذكارًا آخر أسبوعيًا، بل وتذكارًا آخر في كل يوم...

في كل أسبوع تعطينا صوم الأربعاء والجمعة.

ففي يوم الجمعة نتذكر صلب المسيح، وفي يوم الأربعاء نتذكر التآمر عليه. وإذ ترى الكنيسة أن هذا أيضًا لا يكفي، تذكرنا بآلام المسيح في كل يوم بصلاة الساعة السادسة التي نقول له فيها: "يا من في اليوم السادس وفي وقت الساعة السادسة، سمرت على الصليب من أجل الخطية التي تجرأ عليها أبونا آدم في الفردوس، مزق صك خطايانا أيها المسيح إلهنا ونجنا"...

وبالإضافة إلى كل هذا، تذكرنا الكنيسة بآلام المسيح عن طريق الصليب الذي نراه باستمرار في الكنيسة وفي يد الكاهن... وفي كل مناسبة طقسية، ونعيد له...

✞ إن الله منذ القدم يحب أن يذكرنا بالأمور النافعة لخلاصنا، لأن نسيانها يسبب لنا الفتور أو السقوط.

منذ القديم حينما خلص الناس من سيف المهلك بدم خروف الفصح، وقال لهم: "فَأَرَى الدَّمَ وَأَعْبُرُ عَنْكُمْ" (خر١٢: ١٣)، جعل الله موضوع الفصح هذا "تَذْكَارًا... وفَرِيضَةً أَبَدِيَّةً" (خر١٢: ١٤) لكيلا ينسى الناس الدم اللازم للخلاص.

وأمرهم أن يقصوا كل هذا على أولادهم، لكي يتذكروا فينتفعوا.

ولما أخطأ أبوانا آدم وحواء، جعل لهما عقوبة تذكرهما...

قال **لآدم:** إنه يأكل خبزه بعرق جبينه، **ولحواء:** أنها بالوجع تحبل وتلد ومع أن المسيح أتى وخلّص آدم وحواء وبنيهما، إلاَّ أن هذه العقوبة ما تزال قائمة حتى لا ننسى...

حتى لا ننسى خطيئتنا الأولى ونتائجها وعمل الله لخلاصنا...

هل يتذمر أحد إن تعب من أجل أكل خبزه. أو إن تعبت امرأة في حبلها وفي ولادتها؟! إنه ولا شك تعب مقدس يذكرنا بخطايانا فنتضع، حتى لا ننسى...

صدقوني، أنه حتى الأسماء في العهد القديم، كانت أيضًا تحمل معنى التذكير بالنسبة إلى كثيرين...

(إبراهيم) سُميَ بهذا الاسم الذي معناه أبو جمهور، لكي يتذكر بركة الله له في كثرة البنين، وبنسله تتبارك جميع قبائل الأرض. وكل أبناء ليئة وراحيل، كانت تحمل أسماؤهم معاني معينة، تُذكّر بعمل الله وإحساناته (تك٢٩).

سمّت مثلًا ابنها شمعون، وقالت: "إِنَّ الرَّبَّ قَدْ سَمِعَ.." (تك٢٩: ٣٣).

يعقوب أبو الآباء المكان الذي رأى فيه السلم والملائكة، بيت إيل، أي بيت الله، ليتذكر أن الله ظهر له فيه.

✝ هناك أشخاص – للأسف – يتذكرون بعد السقوط.

مثل ذلك **بطرس**، الذي تذكر تحذير السيد المسيح له بعد أن أنكره، ومثال ذلك **المريمات** اللائي حملن حنوطًا إلى القبر، وقد نسوا أن الرب تحدث عن قيامته. لذلك ذكّرهم الملاك بذلك قائلًا: "أَنَّكُمَا تَطْلُبَانِ يَسُوعَ الْمَصْلُوبَ. لَيْسَ هُوَ ههُنَا، لأَنَّهُ قَامَ كَمَا قَالَ" (مت٢٨: ٥، ٦). لقد نسيَ النسوة أنه سيقوم، لذلك حملن الحنوط.

الكنيسة باستمرار تقوم بتذكيرنا... حتى لا ننسى فنسقط.

وحينما تضع لنا الكنيسة سبع صلوات كل يوم، فليس هذا عبئًا أو ثقلًا تضعه علينا، بل هو نافع لتذكيرنا.

نتذكر مناسبات عديدة كميلاد المسيح وصلبه وموته، وكحلول الروح القدس، كما نتذكر الموت والمجيء الثاني ولزوم التوبة...

ليتنا نتذكر أيضًا إحسانات الله إلينا، وحبذا لو كان لها سجل. نسجل فيه عمل الله مع الكنيسة ومع الأفراد، ونسجل المعجزات التي تحدث لنا بشفاعات القديسين.

كان ملوك فارس يســجلون الأحداث الهامة في أخبارهم، ويتذكر أحد هذه الأحداث، كما فعل الملك مع أستير ومع مردخاي.

ليتنا نحن أيضًا نسجل لكيما نتذكر..

فتذكار إحسانات الله يقودنا إلى حياة الشكر.

وتذكار الموت والدينونة يقودنا إلى التوبة، إلى الحرص.

وتذكار وجود الله يقودنا إلى الاستحياء وإلى المخافة.

وتذكار ضعفنا وسقوطنا السابق يقودنا إلى التدقيق والاحتراس...

الفهرس

طُرس البركة لقداسة البابا تواضروس الثاني ٧
هذا الكتاب ٩
قداسة البابا شنوده الثالث في سطور ١١
خطوات في الطريق الروحي ١٣
خطوات إلى الله ٢٢
انسحاق القلب ٣٢
بعض مظاهر الكبرياء ٤٢
علامات الاتضاع ٥٠
التطبيق العملي للاتضاع ٥٩
الحديث عن الاختبارات ٦٨
من التواضع: احترام الآخرين ٧٧
الدفاع عن النفس ٨٦
المتكأ الأخير ٩٥

الرجاء ١٠٤
الهدف في الحياة الروحية..... ١١٣
الضمير ومدى صلاحيته ١٢٢
الضمير والإرادة..... ١٣١
الإرادة كيف تقوى وكيف تضعف؟ ١٣٩
النسيان..... ١٤٨